بعض الآثار الإسلامية بجبل نفوسة في ليبيا

تأليف

د. محمد سالم المقيد الو رفلي

مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية



بعض الآثار الإسلامية بجبل نفوسة في ليبيا

تأليف

د. محمد سالم المقيد الو رفلي

مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية



تـــقـــــــــــــــديم

إنهـــا لحقيقة متفق عليها، ان ليبيا لم تنل إلا قليلا من الدراســـات في مجال الفنون والآثار الإســـلامية، فلقـــد كان الاهتمام منصبا على المخلفات الإغريقيـــة الرومانية. ويمكن ان يقـــال أيضا ان حقبة ما قبـــل التاريخ قد حازت على قدر كبير مـــن الاهتمام مقارنة بالآثار الإســـلامية، التي لم يكتب لها حتى رصد وتســـجيل معالمها. ولم يفتح هذا الباب إلا في أواخر الســـتينات من القرن العشرين. وعلى الرغم من ذلك فلا زالت المعالم والموقع الإســـلامية الأثرية بحاجة ماسة إلى الدراسات الجادة والعناية العلمية. والهدف هو إلقاء مزيد من الضوء على حقب تاريخية ومفصلية في تاريخ هذا البلد.

ان منطقة جبل نفوسة تتصف ضمن المناطق التي عانت من الإهمال في هذا المجال لفترة طويلة من الزمن. ولذا كانت هذه الدراسة، برغم مـــا اكتنفنا من صعوبات، محاولة لإزالة بعض الغبار عن صفحات من التاريخ والمعالم الأثرية. ومن جهة أخرى محاولة لتمهيد الســـبيل أمام أولئك الذين يودون الذهاب إلى ابعد من هذا الهدف. وذلك بالسعي لانجاز دراسات أكثر تفصيلا وعمقا. وعلى العموم فهذه الدراسة ربما تنجح في الإشـــارة إلى مواقع ومعالم إسلامية، يجب ان تحظى بالأولوية عندما يتقرر إجراء الحفريات الأثرية في هذه المنطقة.

ولعل الإشكالية الأساســـية التي يواجهها الباحث في الدراسات الأثرية. هي الرؤيـــة التاريخية المتزنة. وفي منطقتنا هذه لم تكن بالقدر الكافي. وإذا كان من أهداف هذه الدراســـة العمل على تأطير رؤية

تاريخية موضوعية للمنطقة، عبر القرون الإسـلامية الأولى. ولقد تم توظيف المقارنة والقياس من اجل رسم الخطوط العريضة لهذا التصور. وهذا ما دعت إليه الضرورة العلمية، وصولا إلى تسليط الضوء على أقدم المعالم الإسلامية بجبل نفوسة.

محمد سالم المقيد الورفلي



مختصرات لبعض المراجع

مختصرات

العبر	ابن خلدون.
	كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر.
الكامل	ابن الأثير.
	كتاب الكامل في التاريخ .
المغرب	البكرى.
	المسالك والممالك
	المغرب في ذكرى بلاد افريقية والمغرب.
البيان	ابن عذارى.
	كتاب البيان المغرب في ذكرى الأندلس والمغرب
السير	الشماخي/ كتاب السير.
الفتح العربي	طاهر الزاوي/ الفتح العربي لليبيا.
فتوح	ابن عبد الحكم.
	فتوح أفريقيا والأندلس.
معجم	طاهر الزاوي/ معجم البلدان الليبية.
مواكب	علي معمر/ الإباضية في موكب التاريخ.

رحلة   التيجاني/ رحلة التيجاني.

A.O   **Ars Orientalis**

Chronique   Abu Zakaria / Chronique D'Abou Zakaria

S.R.I   Stranford Research Institute



المقدمة

على الرغم من توفر بعض المعلومات التاريخية وغيرها عن منطقة جبل نفوسة، من قبل عدد من المؤرخين والجغرافيين القدماء، إلا ان الجوانب الأثرية والفنية لم تكن محط اهتمام لديهم، والكتاب المعاصرون الذين اقتبسوا ما كتبه القدماء، أهملوا بدورهم هذا الجانب. وربما يعود هذا إلى العديد من الأسباب، ولعل من أهمها، صعوبة التنقل بالمنطقة، وصولا إلى المواقع الأثرية الإسلامية، وكذلك قلة أهل التخصص المهتمين بخوض هذه المخاطرة مع وجود الأسهل دراسة، والأكثر قربا من الطرق الممهدة والعمران.

ان مادة هذا البحث التي تشملها الدراسة والمناقشة، هي ثمرة لجهود ميداني، تحقق بفعل الرحلات المتكررة لمنطقة الجبل. كما هي أيضا جهد ونتيجة عون الجنود المجهولين. ويجدر القول بان اغلب المباني الأثرية، التي تضمنها البحث. لم تكن في أعين أهل الجبل عمائر تاريخية وحسب، بل أمكنة تحظى منهم بالتقدير والاحترام، ويعود أصل هذا الأمر إلى الصلة التي تربطها بأهم الشخصيات العلمية بالمنطقة في القرون للإسلامية الأولى.

ولا يفوتني هنا ان أسجل عرفاني بالفضل للدكتور (جيزا فيهرفاري)، أستاذ الآثار والفنون الإسلامية بجامعة لندن، الذي كان منذ البداية محرضا لي للخوض في غمار هذا الموضوع، والذي تم فيما بعد تحت إشرافه كتابة هذه الأطروحة، كما ان الشكر موصول إلى مصلحة الآثار. ويشمل هذا أولئك النفر الذين رافقوني في العديد من الرحلات، وأنجزوا كل ما كلفوا به متحلين بدرجة عالية من البذل والإخلاص. ان شكري موجه أيضا إلى الأستاذ (سيجال)، الذي قام

بترجمة النصوص العبرية وكذلك إلى الزملاء الذين ساهموا بقدر كبير في إثارة الانتباه إلى العديد من النقاط الهامة ولا أنسى ان أسجل تقديري للأساتذة: الدكتورة سعاد ماهر، عميدة كلية الفنون والآثار الإسلامية، جامعة القاهرة، الدكتور طه باقر أستاذ الفنون الإسلامية، جامعة بغداد، والدكتور ديفيد وايت هاروس، الأستاذ والباحث في مجال الفنون والآثار الإسلامية. وذلك لما اكتسبه منهم من معلومات في هذا الميدان. وكذلك لما قدموه من توصيات تخصني إلى جامعة لندن. والفضل أولا وأخيرا لمن يسر جميع الأسباب.



الفصل الأول

الأرض والتاريخ

الأرض والتاريخ

ليبيا، أو الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، وهو الاسم الرسمي للدولة القائمة بالشمال الإفريقي، وتمتد أراضيها فيما بين جمهورية مصر العربية شرقا، والجمهوريتين التونسية والجزائرية غربا. وتقع ليبيا على جزء من الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، بين خطي الطول 9 ، 29 درجة شرقا، وخطي العرض 19، 33 شمالا. ويحدها من الجنوب النيجر وتشاد، ومن الركن الجنوبي الشرقي السودان. وتبلغ المساحة التقريبية للأراضي الليبية الشاسعة 1,754,000 كم^2 (677,378) ميل مربع، وهذا يعني ان مساحتها تعادل مساحة الجزر البريطانية ثماني مرات، كما إنها تزيد على مساحة فرنسا، ايطاليا، اسبانيا وألمانيا الغربية مجتمعة.[1]

ولا يوجد ما يعرف علميا بالجبال على هذه الرقعة، وذلك ان سلسلة جبال أطلس تمت من بلاد المغرب إلى الشرق، متدرجة في انخفاضها، لينتهي ظهورها بنهاية جبال مطامطة في الأراضي التونسية. وثمة–على أية حال– تلال مرتفعة بليبيا يطلق عليها مجازا اسم الجبال. ويشمل هذا منطقة جبل نفوسة، أو الجبل الغربي.[2]

ينقسم جبل اطرابلس (الجبل الغربي) إلى أربعة أقسام، وتعرف بجبل نالوت، جبل غريان، جبل يفرن، وجبل نفوسة. ويمتد القسم الأخير من الحدود التونسية إلى مسافة تبلغ حوالي 200 كم (124ميل) إلى الشرق منها.

1– Stanford Research Institute, Area handbook for Libya. Washington 1969. P 9

2– محمد المرابط، حقائق عن ليبيا، مالطا، 1964، ص 13.

و تطل واجهة جبل نفوسة شمالا على سهل الجفارة وتتخلل هذه الواجهة العديد من الأودية الصغيرة والشعاب، والتي تدفع بمياهها في موسم الأمطار إلى سهل الجفارة. وهذا السهل يتسع في بعض أنحائه ليبلغ حوالي 80 كم تقريبا، حيث يتصل بساحل المتوسط. وتقع الحمادة الحمراء، التي تمتد لمسافة تبلغ حوالي 80 كم. في الجهة الجنوبية من الجبل الغربي.[3]

و يمكن للمرء سلوك طريقتين للوصول إلى جبل نفوسة، الأول يتجه نحو الجنوب حتى مدينة غريان، التي تبعد حوالي 94 كم. عن مدينة اطرابلس، ثم يتجه غربا مخترقا بعض قرى جبل نفوسة. ويعرف هذا الطريق بالطريق العلوي. والطريق الثاني ويبلغ طوله حوالي 285 كم، يمتد باتجاه الجنوب الغربي، ليصل إلى مدينة نالوت في أقصى الغرب. ويتفرع عن هذا الطريق بعض السبل الصغيرة، التي تربط بعض مدن وقرى الجبل بالطريق الرئيسي، وهو ذات الطريق الذي يواصل امتداده جنوب نالوت، ولمسافة تقدير بحوالي 335 كم ليبلغ مدينة غدامس ذات الشهرة التاريخية والأثرية الواسعة.

و تبعد قرية (كاباو)، باتجاه الشرق، عن مدينة نالوت بمسافة تقدر بحوالي 87 كم، أما قرية فرسطة القديمة، التي تحتل مبانيها سفح احد الجبال، فتقع فيما بينهما، ويمتد وادي شروس من منطقة الحرابة إلى الجنوب الغربي من مدينة كاباو، ليلتقي في الشمال مع سهل الجفارة. وتتبع قرية شروس القديمة على هضبة صغيرة على الضفة الشرقية من الوادي. أما على الضفة الغربية فتظهر أطلال قرية تندميره. وتقع قرية ويغو القديمة على مسافة 7 كم إلى الجنوب الشرقي من شروس، حيث تنتشر بقايا أثارها على ارض منبسطة

3– نفس المصدر ص ، 11، S.R.I. Op-cit . P. 11

خلافا لما عليه القرى المشار إليها سابقا، وإلى الشرق منها بمسافة تقدر بحوالي 50 كم، وعلى الطريق العلوي توجد منطقة (الرحيبات). وإلى الشرقي منها، وعلى مسافة حوالي 36 كم. تظهر مدينة (جادو)، المطلة على سهل الجفارة. ويستمر امتداد الطريق وصولا إلى مدينة (يفرن)، ثم مدينة (غريان). وهي المدينة التي تعد ملتقى الطريق بالجبل الغربي .

لم ينل جبل نفوسة ذلك الاهتمام من قبل المؤرخين القدماء، ولعل أهم ما جاء بخصوصه من إشارات، وردت عن طريق ابن حوقل والبكري وكتاب الاستبصار .

يقول ابن حوقل، ان جبل نفوسة عبارة عن منطقة جبلية عالية، وتقع كل من مدينة شروس وجادو بوسط هذه المنطقة. وبكل منهما جامع ومنبر، كما يشير إلى ان سكان الجبل أباضيو المذهب، ولم يستقر بهذه المنطقة إلا الخوارج منذ فجر الإسلام.[4]

ويذكر البكري ان جبل نفوسة يقع على مسيرة ستة أيام من اطرابلس. وكانت به قبيلة تسمى (بني زمور). ولها حصن منيع. وإلى جوارها توجد قبيلة أخرى تدعى (بنو تندميرة) ولها ثلاثة حصون، وتقع مدينة جادو بين هذه القبائل، حيث توجد الأسواق، وجمع من اليهود. كما ان البكري أشار إلى ان شروس هي المعروفة بأم قرى جبل نفوسة، ويسكنها الأباضيون. وأضاف إلى هذا، انه لا يوجد جامع بمدينة شروس، ولا بالقرى التي تحيطها، والتي تبلغ ثلاثمائة قرية.[5]

4- ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة كرامرز، ليدن، 1938–9، ص 5–94.
5– البكري، المســالك والممالك، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، طبعة دو سلاين ((de slaneالقاهرة1857 ،، ص 9.

تمهيد تاريخي:

يتعرض ابن خلدون إلى ذكر البربر، ويسهب أكثر من غيره في الحديث عنهم، ويكفي ان نقتبس منه العبارة التالية، والتي تتضمن وتختزل الكثير : (وما تشهد أخباره كلها بأنه جيل عزيز على الأيام، وأنهم قوم مرهوب جانبهم، شديد بأسهم، كثير جمعهم، مظاهرون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس ويونان والروم).[6]

ربما لا نجانب الحقيقة عندما نقول ان معلوماتنا عن أصول الليبيين قليلة جدا، ولعل الدراسات التي أجريت في حقل ما قبل التاريخ، والأبحاث المتعلقة بعلم الإنسان قد ألقت القليل من الضوء على هذا الموضوع. والراجح حتى الآن ان أول ذكر لليبيين يرجع تاريخه إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد، ولقد وثقت هذه الإشارة في نص مكتوب يعود تاريخه إلى العصور المصرية القديمة.[7]

تشير الدراسات على انه بحلول القرن العاشر قبل الميلاد، استوطن البلاد مجموعات من الناس عرفت بالليبيين، الذين عرفوا فيما بعد باسم البربر[8]، وعلى الرغم من تعرض الباحثين إلى تفصيل

6- ابن خلـــدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخـــبر، القاهرة، 1867، المجلد السادس، ص 103–4.

7- I.E.L. Haynes, Antiquities of Tripolitania, Kent , 1965, pp. 18–22.

8- E.Rossi, Storia di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista al 1911, Roma 1968.p. 4–5.

أنظر أيضا حامد عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، تونس 1968، ص 13.
E–F, Gautier, le passé de L'Afrique du NordTrans.
ترجمة الحسيني، طرابلس، 1970، ص 17–8.

اكبر بشأن الموضوع،[9] إلا أننا لا نستطيع الجزم بحقيقة أصول البربر، أو المناطق التي قدم منها البربر أصلا. ولقد تشعبت الآراء حقيقة حول هذا الأمر، فمن قائل بمجيئهم من منطقة بأعالي النيل، ومنهم من يقول أنهم من أجناس البحر المتوسط، وآخرون يشيرون إلى إثيوبيا، ويضيفون إلى ذلك أنهم من نسل الحاميين. ويبقى من يرجع أصولهم إلى الساميين بالجزيرة العربية.[10]

و لقد ظلت المعلومات التي سطرها المؤرخ اليوناني هيردوت حول القبائل الليبية ثابتة[11] حتى الفترة الرومانية، حيث بدأنا نسمع منذ القرن الثالث الميلادي بأسماء جديدة مثل واسيلي والاستوريين. وانه من الصعب ان نجد ان هذه القبائل من القادمين الجدد إلى البلاد، أم إنها أسماء جديدة أعطيت للقبائل المذكورة آنفا.[12]

و يصف هيردوت القبائل الليبية بأنهم قوم رحل يشربون اللبن ويأكلون اللحوم. ومن المعروف ان للحضارة الفنيقية تأثير على بعض البدو الرحل، إذ أنهم ألفوا حياة الاستقرار وزاولوا الزراعة.[13]

9- Gautier, op. cit , P 27.

ابن عبد الحكم، فتوح إفريقيا والأندلس، دار نشر الطباع، بيروت، 1964، ص 27–8، أنظر أيضا ابن خلدون، العبر، ص 89–97.

10- Haynes, op. cit, p. 18

11- أنظـــر المصدر الســـابق ص 18–9، أنظر أيضـــا. A. fantoli, la Libia, Roma , 1933 ; PP, 7 ; 15–6.

وفقـــا للطاهر الزاوي ان الجرمانيتين فخذ من قبيلـــة بني مصالة ،التي تنتمي إلى لواته.
أنظر الطاهر الزاوي ،معجم البلدان الليبية ،طربلس1968 ،، ص 101–2

12- أنظر المصدر السابق، Rossi, op. cit , pp. 5–6 Fantoli, P 101

13- أنظر، Rossi, op, cit P. 5. J.S Nickerson, A short history of

وكانت هذه القبائل تتكلم لغة تطورت تدريجيا، لتتفرع إلى عدة لهجات وتعبيرات تميز هذه القبائل، ولا يزال بعضها موجودا إلى وقتنا الحاضر، ونلمس هذه الظاهرة في كل من غدامس، سوكنة جبل نفوسة، زوارة، وجربة، وكذلك في وسط بلاد الجزائر. ويجدر بنا ان نذكر ان اللغة الفينيقية قد انتشرت بين القبائل وعاشت حتى بعد غزو البلاد من قبل الرومان، واندحار الفينيقيين من الشمال الإفريقي.[14]

تبين من الأدلة الأثرية في مجال الدين والعقدة ان الليبيين القدماء عبدوا الشمس والقمر، ولقد كان ذلك بتأثير المعتقدات المصرية القديمة.[15] ولا جدال حول تأثرهم بعد بالرؤية العقدية للفينيقيين الساميين، ولم يزل هذا الحال إلى ان وصلت المسحية إلى البلاد، واستمرت بها حتى مجيء الفاتحين العرب المسلمين.

ان الفينيقيين الذين يلتقون مع العرب في الجنس السامي، بدا تحركهم إلى غرب البحر المتوسط، قبل ألف سنة من الميلاد تقريبا، ونحن لا ندري بالتحديد بداية استقرارهم بليبيا، ولكن الذي تعرفه أنهم قد بسطوا سيطرتهم على الجزء الشمالي الغربي من البلاد، في نهاية القرن السابع قبل الميلاد، وقاموا بتأسيس المدن التجارية الثلاث: لبدة الكبرى، اطرابلس (أويا)، وصبراته. وفي ذات الوقت نجح الإغريقيون في غزو الجزء الشمالي الشرقي، وتم لهم أيضا الاستقرار وبناء المدن، وكان الفاصل بينهم وبين الفينيقيين خليج سرت، (منطقة

North Africa, New york, 1968. p. 21

أنظر أيضا، عبد الوهاب، نفس المصدر، ص 17.

14– أنظر، Rossi, op. cit, pp. 10–1. Gautier, op. cit pp. 91,94.

15– أنظر، Haynes, op cit pp. 21–4.

فيلينورم).[16]

لقد سبب احتلال الفينيقيين لـ (ميسينا) في عام 265 قبل الميلاد حرجا وخطرا للرومان. الأمر الذي دفعهم إلى التفكير والعزم على وضع حد، بل نهاية لغريمهم ومنافسهم في منطقة البحر المتوسط. ولذلك كان احتلال ميسينا بداية للحروب البونيقية، التي انتهت في سنة 146 قبل الميلاد. ولقد كانت نهايتها فاجعة للفينيقيين، حيث تمكن الرومان من احتلال وتدمير قرطاج[17]. وبهذا أسدل الستار على حكم الفينيقيين لتحل محله سيطرة الرومان.[18] ويمكن القول ان حكم قرطاج قد بدا في الأفول أبان القرن الثالث قبل الميلاد.

ويبدو ان الرومان لم يكتفوا بتدمير قرطاج، إذ ان القلق ساورهم بشان الانتفاضات المسلحة، ولذا أسسوا حكمهم المباشر بإفريقيا.

أصبحت المدن الثلاث جزءا من الإمبراطورية الرومانية، قبل وقت قصير من احتدام الصراع على السلطة في الإمبراطورية. ولقد انتهى ذلك الصراع بانتصار اكتافيوس في معركة اكتيوم عام 31 قبل الميلاد.[19] ولقد واجه الرومان مقاومة شديدة من قبل الليبيين

16– Ibid, pp. 25–8, Rossi, op, cit pp. 7–10 Nickerson, op. cit p. 12.

17– أنظر ، Nickerson, op. cit, pp. 11–2. Rossi, op, cit p8 H–G . Wel- les, the outline of History, New York, 1931, pp. H32–3, 439–48.

18– اســـم الثلاثة من ظهر لأول مرة في القـــرن الثالث قبل الميلاد، ويعني كل الأراضي الممتدة بين خليج ســـرت وخليج قابس في تونس، والمدن الثلاثة تحديدا هي: طرابلس (أوبا) ولبدة الكبرى وصبراته، والمزيد من التفاصيل أنظر: Rosi, op. pp. 3–4

19– أنظر، Haynes, op. cit p. 11

المتحصنين في المدن الساحلية، ولكنهم لم يلبثوا ان بسطوا سيطرتهم على هذه المدن، واستمر تقدمهم نحو الجنوب حتى وصلوا إلى مناطق الجرمانيتين بفزان في الجنوب الليبي.

كان عهد الإمبراطور سبتميوس سيفروس (193–211 م) عهدا متميزا في ليبيا. ففي هذه الفترة بني حصن أبي نجيم على الطريق الممتد من طرابلس إلى جنوب البلاد. وبعد سنوات قليلة أنشأ الرومان حصني القريات الغربية وغدامس (سيدا موس)،[20] وقد كان الغرض من بناء هذه الحصون تحقيق هدفين أساسين. الأول إنشاء خط دفاعي لحماية المدن الثلاثة من هجمات القبائل الليبية، والثاني استخدام هذه الحصون كقواعد للانطلاق باتجاه الأراضي الواقعة بجنوب البلاد.

و يبدو ان انتهاء حكم أسرة سيفروس قد ارتبط بظهور الانتفاضات في البلاد، ومن جهة أخرى كان بداية لانحسار وانهيار الحكم الروماني في ليبيا.

لقد كان عام 439م. تاريخا لاحتلال قبائل الوندال، القادمين من أوربا، لمدينة قرطاج.[21] وعلى الرغم من احتلالهم وسيطرتهم على المدن الثلاثة، والتي استمرت لمدة قرن تقريبا، فالحقيقة أنهم لم يؤسسوا لهم بها وجودا قويا ومستقرا، ومما يؤكد هذه الحقيقة انحدار الوندال في أول مواجهة مع الجيش البزنطي عام 531، 32 م.[22]

و تدلل المخلفات الأثرية على ان النفوذ البزنطي لم يتجاوز الشريط الساحلي. ويعود هذا الأمر إلى العداء الذي واجه به

20– أنظر، Gautier, op. cit pp. 92-4. Ibid, pp. 39-40, Nickerson, op, cit , pp. 22-9.

21– أنظر، Haynes , op.cit, p. 61

22– أنظر، Rossi, op. cit. p, 20. Nickerson-op-cit p. 6.

المواطنون الجيوش الغازية. ومما يؤكد هذه المشاعر ان البزنطيين كانوا منشغلين بإخماد حركة المقاومة والانتفاضات المتكررة.[23] ولم ينته حكم البزنطيين حتى ظهر على مسرح الأحداث، إبان العصور الوسطى، القبيلتان البربريتان، نفوسة وهوارة. وهما القبيلتان اللتان قدر لهما ان تلعبا دورا مهما وحاسما في حركة التاريخ وأفاق الجغرافيا السياسية.[24]

وبمراجعة هذه الومضات التاريخية، يتبين كيف توالت أيدي الحكم على ليبيا، قبل مجيء العرب إلى هذه البلاد، كما يتبين أيضا ان السكان كانوا يلتزمون دوما موقف الرفض والمقاومة للجيوش الغازية. وعلى الرغم من هذا الموقف المعادي، لم يكن ذلك ليمنع السكان من التأثر ببعض الأفكار وطرق العيش لدى الحملات العسكرية المتعاقبة.

ولقد ترسخ التأثير البونيقي في المدن الثلاث، كما في أجزاء أخرى من الشمال الإفريقي حتى بعد سقوط مدينة قرطاج. وكان للغة البونيقية التي تكلمها الليبيون إلى جانب الإغريقية والرومانية، عظيم الأثر في حياة السكان، ومما يدلل على ذلك، الأسماء البونيقية، والتي تسمى بها الناس، إضافة إلى المصطلحات البونيقية في الإدارة والحياة الدينية.[25]

ولا يغرب عن البال ان انتشار اللغة البونيقية عبر زمن طويل،

23– أنظر، Haynes,op, cit

24– Ibid, p. 67.

أنظر أيضا ،حسن مؤنس ،فتح العرب لبلاد المغرب ،القاهرة ،1947 ،ص 50–1

25 – Fantoli, op, cit , p. 49. Rossi, op, cit, p. 10

قد ساعد فيما بعد على تمهيد الأرضية لانتشار اللغة العربية، على نطاق واسع بين الناس، كما لا يفوتنا العلم بان المعتقدات البونيقية هي فينيقية الأصل. وهذا الأمر قد يسر للناس اعتناق المسيحية، ثم الإسلام دون إشكاليات.[26]

ولا يعني هذا ان الحضارة الرومانية لم يكن لها تأثير على البلدان اللاتينية الجديدة (Neolatin)، إلا ان هذا التأثير كان بعيدا عن إطاري اللغة والتقاليد البربرية. وبالمقابل فالعمارة والفنون الرومانية لا زال لها الأثر الملحوظ على الأطلال القائمة في البلاد.[27]

و لقد أضافت الحفريات الأثرية الحديثة في ليبيا، معلومات جديدة إلى معارفنا المتعلقة بمناطق المدن الثلاث في الفترة الرومانية، فالمسيحية مثلا قد اعتنقت من قبل السكان المحليين في العهد الروماني، ولكن المذهب الكاثوليكي لم يكن له وجود إلا بعد الدعاية له من قبل البزنطيين[28]. كما انه على الرغم من حكم البزنطيين لفترة طويلة من الزمن، فالمعلومات المتوفرة لا تنسب إليهم أثرا باقيا في مجال الفنون والعمارة. ولكن الثابت ان نظامهم الإداري حقق نجاحا وفاعلية.[29]

و لم يكن عمرو بن العاص، وبعد فتح مصر، في سنة 21 هـ – 642 م. مقتنعا بأنه حقق نصرا كاملا. ذلك انه رأى ان الجهة الغربية من البلاد المفتوحة، تبقى باستمرار تحت تهديد وخطر البزنطيين.[30] ولذا تقدم إلى برقة ثم إلى الغرب، قاصدا فتح ما يليها من

26– Rossi, op, cit, pp. 10–1. Gautier, op. cit, pp. 91, 100–1.

27– Haynes, op. cit, pp. 41–4.

28– Ibid, pp. 66–7,

29– Rossi, op, cit, p. 22.

30– أنظر: حسين مونس، المصدر السابق، ص 26. وقارن ص 27، كتاب

المدن. أثناء ذلك بعث بفرقة من جيشه، بقيادة عقبة بن نافع، ليقطع الصحراء جنوبا، وواصل عمر سيره باتجاه اطرابلس،[31] بينما قطع عقبة الصحراء حتى وصل إلى زويلة.[32]

و لم يلق جيش ابن العاص مقاومة تذكر حتى توقف على مشارف اطرابلس. وكانت قد امتنعت عليه بتحصيناتها المعنية. فعزم عمرو على محاصرتها. وفي هذه الأثناء وصلت رسالة إلى نفوسة طلبا للنجدة وكسر الحصار.[33] ولم تزودنا المصادر بما يفيد ان نفوسة قد لبت الطلب.

ولم يكتمل شهر واحد على حصار اطرابلس حتى سقطت في أيدي المسلمين. وفتحت المدينة عنوة في سنة 22 هـ – 643 م. ولم يلبث الجيش الإسلامي ان واصل زحفه نحو الغرب، وتم له الاستيلاء على المدينة الثالثة صبراته (صبره)، التي استسلمت دون مقاومة.[34] وكان عمرو قد أرسل بفرقة من الجيش، بقيادة بسر بن ارطأة، إلى منطقة ودان[35] بالجنوب الليبي، بينما انطلق عمرو بن العاص من مدينة

Rossi

31– أنظـــر ، البلانري، فتوح البلـــدان، القاهرة، 1932، ص 227. والبكري، نفس المصـــدر، ص 8 وابن الاثير، كتاب الكامل في التاريخ، طبعه ليدن 1867، المجلد الثالث، ص 19.

32– أنظـــر، البكري، نفس المصـــدر، ص 10 وابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص 30.

33– أنظر التجاني، رحلة التجاني، تونس 1958، ص 10، وقارن حسين مؤنس، نفس المصدر ، ص 63.

34– أنظـــر، ابن عبد الحكم، نفس المصـــدر، ص 30–32، وقارن، ابن الاثير، نفس المصدر، ص 19–20.

35– أنظـــر ابن عبد الحكم، (فتـــوح) ص 50–1. وانظر أيضا، أيضا البكري،

صبره نحو شروس، حاضرة جبل نفوسة، وتمكن من وضع يده عليها دون عناء يذكر.[36]

ولقد تبين لعمرو بن العاص بعد فتح قرية شروس، ان التقدم غربا سيواجه بتحديات كبيرة، ولعل من أهمها جيش جيرجيريوس الكثير العدد، وابتعاده عن قاعدة الإمداد الرئيسية في مصر، ولذا تطلب هذا الأمر، مراجعة الخليفة عمر بن الخطاب بهذا الشأن، كما انه طلب الأذن والموافقة على مواصلة التقدم باتجاه افريقية (تونس)،[37] والراجح انه بعث برسالة قبل مغادرته شروس، قافلا إلى مدينة اطرابلس.

وكان نص الرسالة التي بعث بها عمرو بن العاص كالتالي :

(ان الله قد من علينا بفتح اطرابلس، وليس بينها وبين افريقية إلا تسعة أيام فان رأي أمير المؤمنين ان يغزوها فتحها الله على يديه).

لم تكن رؤية عمرو بن العاص موافقة لما يراه الخليفة، ولذا جاء الرد على النحو التالي :

(لا إنها ليست بافريقية، ولكنها المفرقة، غادر مغدور بها لا يغزوها احد ما حييت) .[38]

عاد عمرو أدراجه إلى مصر، بمجرد استلامه لرسالة الخليفة

نفس المصدر، ص 12.

36– البكري (المغرب) ص 12.

37– يعتبر اســم افريقية الاسم القديم عند العرب لتونس وأجزاء من الأراضي الجزائرية، وكان عمرو بن العاص يعني بهذا الأســم الأراضي الواقعة إلى الغرب من ليبيا.

38– أنظر، ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص 33.

ولم يكتمل بعد عام 23 هـ – 644م. ومما يدعو إلى التساؤل والاستغراب، ان عمرو بن العاص لم يترك وراءه من ينوب عنه في حكم اطرابلس. أما بالنسبة إلى برقة فقد ولى عليها عقبة بن نافع.

وانتهت الحملة الإسلامية الأولى على ليبيا. وكانت شروس وزويلة أقصى نقطتين وصلهما المسلمون إلى الغرب والجنوب.[39] ويبدو ان مقصد عمرو من هذه الحملة، كان بالدرجة الأولى استكشافا وأعدادا للحملات المستقبلية. وربما على أساس هذه الرؤية نستطيع ان نفسر الغموض، الذي اكتنف عودته إلى مصر دون ان يخلف وراءه أحدا في حكم اغلب البلاد المفتوحة.[40]

وبعد سنوات قليلة، وبالتحديد في سنة 27 هـ – 648 م،[41] قاد عبد الله بن أبي السرح الحملة الإسلامية الثانية نحو افريقية (تونس) ولم يلق عبد الله ما يعرقل تقدم جيشه حتى وصل إلى مدينة صبيطلة. فعلى أبواب هذه المدينة وقعت معركة كبيرة، انتهت بمقتل جيرجيروس وفتح المدينة، في عام 28 هـ – 649م.[42]

ولم يلبث بعدها ان قفل عبد الله عائدا إلى مصر، وفعل ما فعله سلفه عمرو بن العاص، حيث لم يترك من ينوب عنه في حكم الأراضي المفتوحة. ولذا لم تؤسس هذه الحملة، كما هي سابقتها حكما مباشرا في المنطقة التي وقعت بأيدي المسلمين.

39– أنظر، ابن عذاري، كتاب البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، ليدن، 1948، المجلد الأول، ص 8.

40– المصدر السابق، ص 9، أنظر أيضا، ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص 34.

41– أنظر البلاذري، نفس المصدر ، ص 228.

42– أنظر مؤنــس، ص 105–6، وابن الاثير، الكامل، المجلد 3، ص 70، وابن عذاري، البيان، المجلد 1 ص 11–3، وابن عبد الحكم، فنوح، ص 35.

ولقد احدث اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فتنة كبرى في أرجاء الدولة الإسلامية، ونتيجة لذلك توقفت الحملات العسكرية على الشمال الإفريقي لفترة من الزمن، ولم تكن الظروف مواتية لهذا الأمر حتى تولى الأمويون السلطة في عام 41 هـــ – 661م. ونقلوا حاضرة الدولة الإسلامية إلى دمشق.[43]

ولقد عين الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان، معاوية بن خديج قائدا للحملة المتوجهة لفتح بلاد المغرب في سنة 45 هـــ – 666م.[44] وعلى الرغم من المدة التي استغرقتها الحملة، والتي قاربت ثلاثة سنوات، لم تحقق من النتائج ما كان يطمح إليه الخلفية الأموي. ولذا فقد تلتها حملة عسكرية أخرى بقيادة عقبة بن نافع. ولقد تمكن هذا القائد من بناء مدينة القيروان بتونس، وكانت هذه المدينة أول انجاز استراتيجي يحققه المسلمون في عمق الشمال الإفريقي في عام 51 هـــ 671 م.[45]

وتجدر الإشارة إلى ان عقبة خلال السنوات 49، 55 هـــ – 669، 75 م، كان قد توغل في أراضي الجنوب الليبي حتى وصل مدينة جرمه، وتوجه بعد ذلك إلى مدينة كاوار في العمق الإفريقي، وأثناء وجود عقبة بن نافع في هذه المناطق أقدم كثير من السكان المحليين على اعتناق الدين الإسلامي.

وعاد عقبة بن نافع إلى حاضرة الدولة الإسلامية بأمر من خليفة الأموي في سنة 55 هـــ – 675م.[46] وترك وراءه أبا المهاجر دينار

43– ابن عذاري، البيان، المجلد 1، ص 15، وابن الاثير، المجلد 3 ، ص 342.
44– ابن عذاري، البيان، المجلد 1، ص 16–7.
45– ابن الاثير، الكامل، المجلد 3، ص 387.
46– ابن عذاري، البيان، المجلد 1، ص 21، وابن عبد الحكم، فتوح، ص 55.

قائدا للجيش للإسلامي بافريقية، ولم يلبث ان عاد عقبة بن نافع إلى قيادة الجيش الإسلامي وذلك بعد ان توفي الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وتولى ابنه يزيد الخلافة من بعده، في عام 62 هـــ – 682 م.[47]

وسار عقبة بجيشه هذه المرة باتجاه بلاد المغرب، ولم يتوقف في تقدمه حتى لامست سنابك فرسه مياه المحيط، وأثناء عودته وقع في كمين نصبه له البربر، فقتل في منطقة تعرف باسم تهودا.[48] ورأى زهير بن قيس البلوى، الذي تولى القيادة بعد عقبة، الرجوع إلى برقة سنة 64 هـــ–683م. وكان هذا الانسحاب هو ما يطمح إليه كسيلة قائد البربر، فوضع يده على مدينة القيروان.[49]

ويبدوا انه بعد كل المحاولات المتعددة، لم يتمكن العرب المسلمون من تحقق استقرار دائم في الأراضي المفتوحة بالشمال الإفريقي. ورغم ان كسيلة قد أرغم الجيش الإسلامي بالتراجع إلى برقة، فلم يكن هذا الأمر إلا مكسبا سياسيا مؤقتا، ذلك لان العقيدة الإسلامية قد ترسخت لدى العديد من السكان المحليين. ويضاف إلى هذا ان كسيلة لو يتمكن من الدفاع عن القيروان عندما عاد إليها الجيش العربي الإسلامي. فلقد قرر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إعادة القائد زهير بن قيس لمواصلة الفتح بإفريقيا في سنة 69 هـــ 668م. وكان ان تمكن زهير من هزيمة كسيلة، واستعاد مدينة القيروان للحكم الإسلامي، وفي طريق عودته تعرض زهير مع بعض أصحابه لكمين نصبه لهم البزنطيون،

47– ابن الاثير، الكامل، المجلد 4، ص 89، البلاذري، نفس المصدر، ص 230. أنظر أيضا، ابن عذاري، البيان، المجلد 1، ص 23.
48– انها قرية في جبال الاوراس، أنظر، البكري، نفس المصدر، ص 72–3.
49– ابن عبد الحكم، فتوح، ص 61، ابن الاثير، الكامل، المجلد 4، ص 91، وابن عذاري، البيان، المجلد، ص 30–1.

وتمكنوا من قتلهم جميعا قرب برقة.[50]

ولقد تجمع البربر بعد كسيلة حول امرأة تدعى الكاهنة، التي تمكنت من هزيمة القائد الجديد للجيش الإسلامي بافريقية، حسان بن النعمان الغساني، في سنة 79 هـ – 689م.[51] فما كان منه إلا الرجوع منسحبا ليستقر بمنطقة سرت في موقع عرف فيما بعد باسم (قصور حسان).[52] وكان مكث حسان بهذا الموقع انتظارا للمدد، الذي أرسل بشأنه إلى الخليفة.

ولقد استغلت جموع البربر المتجمعين حول الكاهنة هذا الوقت في تدمير الأشجار وحرقها، بضواحي المدن. وكان هذا العمل في ظنهم سيثني عزم المسلمين الذين جاءوا إلى هذه المناطق طعما في خيراتها.[53] ولقد دلت الأحداث فيما بعد ان هذا الفعل لم يكن إلا سوء ظن وتقدير. فلقد وصل مدد الخليفة إلى حسان في سنة 81 هـ – 700م، فانطلق صوب جموع الكاهنة، حيث تمت هزيمتها، فانتقلت إلى جبال الأوراس بالجزائر. وهناك انتهى دورها بقضاء المسلمين عليها.

ولم يكتف حسان بمقتل الكاهنة، بل واصل السير إلى قرطاج،

50– ابـــن عذاري، البيان، المجلد 1، ص 31–2، وابن الاثير، الكامل، المجلد 4، ص 251.

51– تولـــت الكاهنة قيادة القبيلة البربريـــة جراوة في جبال الاوراس بالجزائر، وذكرت في معظم كتب التاريخ الخاصة بالفتح العربي للمغرب، ولكننا لا نعرف شيئا عن شـــخصيتها الحقيقية، ودورها قبل الحملة العربية الثانية، بقيادة حسان النعمان.

52– ابن عبد الحكم، فتوح، ص 63. والبكري، نفس المصدر، ص 8، والطاهر الزاوي، معجم، ص 278–9.

53– ابن عذاري، البيان، المجلد الأول، ص 36–7.

حيث انتهت المعركة بهزيمة البزنطيين، واستيلاء المسلمين على المدينة، ولقد سجل هذا الحدث نهاية للوجود البزنطي بالشمال الإفريقي في سنة 823 هـ – 702م.[54] وكان أيضا بداية لتأسيس حكم إسلامي مستقر بالمنطقة. وأدّى بالتالي لان يكون إيذانا وتمهيدا للحملات القادمة المتوجهة نحو بلاد المغرب الأقصى واسبانيا. وبانتهاء هذه المهمة عاد حسان إلى دمشق في سنة 85 هـ – 705م.[55]

و لم يكن تصدر الأمويين للخلافة الإسلامية ليمر بسلام، فلقد تسببت مشاعر الرفض لهذا الأمر في إثارة العديد من المشاكل والانتفاضات.[56] ونتيجة للقمع والاضطهاد، الذي واجهت به الدولة حركات المعارضة، فرت بعض شخصيات المعارضة إلى بلدان المغرب، طلبا للامان، ولقد توفر لها الملاذ الأمن لدى بعض القبائل المناوئة للحكم الأموي.[57]

ومن المعروف ان الدولة الأموية قد قامت دعائمها على أكتاف الجنس العربي، ولذا كان الجيش الإسلامي ببلاد المغرب مشكلا في أغلبية من قبيلتين عربيتين، هما قيس ومضر. ولقد أدّى إلى التنافس بينهما حول تولي الأمور في الجيش، وحكم المناطق المفتوحة. وكل هذه الظروف قد هيئت بالطبيعة المناخ الملائم لنشئة الفرق والأحزاب. وثمة من المؤرخين[58] من يصنف الأباضية على إنها فرع من

54– لمزيد من التفاصيل أنظر حسين مؤنس، نفس المصدر، ص 259–60.

55– ابن عذاري، البيان مجلد 1، ص 41. وابن عبد الحكم ن فتوح، ص 65.

56 – أنظر ، أحمد امين، فجر الإسلام، القاهرة، 1928، ص 304–8.

57 – ابن الاثير، الكامل، المجلد 5، ص 237، والتجاني، رحلة، ص 207.

58 – أحمد سعيد الشماخي، كتاب السير، القاهرة، 1949، ص 70. وعلي يحي معمر، الأباضية في موكب التاريخ، القاهرة، 1964، الجزء الأول، ص 33–4.

فرقة الخوارج.[59] ولكن الأباضيين لا يعترفون بهذا الانتماء.

ويذكر الشماخي في سيره، ان مسلمة بن سعد، الأباضي المتحمس للمذهب، كان أول من نشر الأباضية في المغرب، وينسب إليه قوله: (إنني أود ان أرى هذا الدين يطبق ولو لمدة يوم واحد ولا أبالي ان أموت في آخر هذا اليوم)،[60] والحقيقة انه لأمر من الصعوبة بمكان ان يجزم المرء على ان شخصا ما كان المسؤول الأول عن نشر المذهب الأباضي، وإرساء قواعده ببلاد المغرب، ولكن من المؤكد انه مع بدايات القرن الثاني الهجري كان للأباضيين ثقل بإقليم طرابلس.

ولقد تمكن الأباضيون من الثورة بمدينة اطرابلس سنة 127 هـ – 744م. الأمر الذي جعل عبد الرحمن بن حبيب، حاكم القيروان، يرسل أخاه إليها، للقضاء على هذه الانتفاضة، وإعادة الهدوء إلى المدينة. ولم يلبث الأباضيون ان قاموا بانتفاضة، ثانية بمدينة اطرابلس. ورأى عبد الرحمن ان وجود أخيه، الذي قتل قائد الانتفاضة الأولى، سيكون عاملا مثيرا لمشاعر الأباضيين، ولذا قام باستدعاء أخيه إلى القيروان، وأرسل رجلا آخر لحكم المدينة. ولكن هذا الرجل حوصر خارج الأسوار، وإعاده الأباضيون إلى القيروان، وتمكنوا من الاستيلاء على اطرابلس بقيادة رجلين، وهما الحارث الحضرمي وعبد الجبار المرادي.[61]

59– الشماخي، السير ، ص 70، أبو الربيع سليمان الباروني، مختصر تاريخ الأباضية، تونس، 1936، ص 40.

60– الشماخي، السير، ص 98.

61– المصدر السابق، ص 125–6 وقارن، الرفيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، تونس، 1968، ص 128–9، والكامل، مجلد 5، ص 237. وابن عبد الحكم يكتب الحارس بدلا عن الحارث.

وهكذا تشكلت نواة أول دولة للأباضية، حيث امتدت سيطرتها إلى خليج سرت شرقا. ولم يدم الحال طويلا بقائدي هذه الدولة، حيث وجدوا مقتولين في ظروف غامضة، ولم يجد الأباضيون بدا من الاتفاق على إسماعيل بن يزيد النفوسي ليتولى منصب القيادة.[62]

ولم يكن عبد الرحمن ليقبل بما آلت إليه الأمور، فأرسل ابن عمه شعيب بن عثمان لإخماد حركة التمرد باطرابلس. وما لبث عبد الرحمن نفسه ان لحق بابن عمه، واستطاع ان يهزم الأباضيين، ويضع نهاية لأول دولة أباضية بشمال أفريقيا في سنة 132 هـ – 753م.[63]

ولقد تمكن الأباضيون من جمع كلمتهم على رجل يدعى أبو الخطاب السمح المعافري، في قرية صغيرة، بالقرب من مدينة اطرابلس، تسمى صياد.[64] ويذكر الشماخي ان أبا الخطاب دخل اطرابلس في سنة 140 هـ – 757م، ومعه جماعة من المسلمين، وادخلوا الرجال في الجواليق على هيئة الرفقة، فلما توسطوا المدينة أشهروا السلاح وقالوا : لا حكم إلا لله. وهكذا أصبح أبو الخطاب أول إمام أباضي.

62– ابن خلدون، العبر، المجلد 6، ص 3 وابن عبد الحكم، فتوح ، ص 108.

63– الرقيق، نفس المصدر، ص 129، وابن الاثير، الكامل، مجلد 5 ص 237.

64– أنظر ابن خلدون، العبر، مجلد 6، ص 112. والطاهر الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، القاهرة، 1963، ص 132–4، والشماخي في كتابه السير يقول: ودخل أبو الخطاب ومعه جماعة المسلمين. وذلك عام اربعين ومائة، وادخلوا الرجال في الجواليق على هيئة الرفقة. فلما توسطوا المدينة اشهروا السلام وقالوا: لا حكم إلا لله.

وكانت القيروان هي الأخرى غنيمة سهلة لقبائل ورفجومة، التي تبنت أسلوبا قاسيا مع السكان، بعد مقتل الحاكم العباسي للمدينة. ورأى أبو الخطاب ان الفرصة سانحة لوضع يده على القيروان. فتقدم بجيشه إليها، واستطاع الاستيلاء عليها في سنة 141 هـ – 759م.[65] ثم عاد بعدها إلى اطرابلس مخلفا وراءه عبد الرحمن بن رستم حاكما للقيروان.[66]

ولم يتمكن أبو الخطاب من الوقوف أمام الجيش العباسي القادم من الشرق بقيادة محمد بن الاشعت، حيث هزم وقتل في معركة مغمداس شرق مدينة اطرابلس،[67] ولم يستطع أبو هريرة الزناتي الذي خلف أبو الخطاب ان يغير من مجرى الأحداث فهزم هو الآخر، في سنة 144 هـ – 761م. وما لبث محمد بن الاشعت، بعد استيلائه على اطرابلس، ان أرسل بفرقة من جيشه إلى ودان وزويلة بأقصى الجنوب الليبي.

وكان عبد الرحمن بن رستم قد انطلق من مدينة القيروان لمساندة أبي الخطاب. وعندما وصل إلى قابس جاءته أنباء مقتل أبي الخطاب، فعاد أدراجه إلى القيروان. ولكن مناصري العباسيين انتهزوا فرصة غيابه، واستولوا على المدينة. وتمكنوا أيضا من أسر عبد الرحمن

65– ابـن خلدون، العبر، المجلد 6، ص 111–2، وابن عذاري، البيان، مجلد 1، ص 70–1. وابن الاثير، الكامل، مجلد 5، ص 241– والشـماخي ، السير، ص 128–30، وقارن، الرفيق، نفس المصدر، ص 141–42.

66– عبد الرحمن بن رستم ينحدر من اصول فارسية، تعود بنسبة إلى الاكاسرة الذيـن حكموا فارس لفتـرة طويلة من الزمن، وكانت نهايـة دولتهم على يد المسلمين، في بدايات الفتح العربي الإسلامي.

67– ابـن الاثير، الكامل، مجلد 5، 241، والزاوي، الفتح العربي، ص 137–8، وقارن، ابن خلدون، العبر، المجلد 6، ص 112. والشماخي السير، ص 132.

بن رستم. وأطلق سراحه فيما بعد، عن طريق وساطة احد أصدقائه من ذوي النفوذ لدى العباسيين. فغادر عبد الرحمن القيروان إلى منطقة تدعى سوقجاج،[68] قرب تاهرت بالجنوب الجزائري.[69] ويبدو ان ابن الاشعت لم يكن راضيا عن إطلاق سراح عبد الرحمن بن رستم، فحاول اللحاق به ولم ينجح، فعاد أدراجه إلى القيروان في عام 153 هـ– 770.[70]

ولقد نجح الأباضيون، بعد هزيمة ابن الاشعت لهم من الاستيلاء على مدينة اطرابلس بقيادة أبي حاطمة، ثم ساروا إلى مدينة القيروان، حيث دخلوها بعد حصار لم يدم طويلا، في سنة 144 هـ – 761م.[71] وعندما علم أبو حاطمة باقتراب الجيش العباسي من مدينة اطرابلس، غادر القيروان لمواجهته قبل الوصول إليها. ولكنه عاد إلى القيروان عندما وصلته الأخبار بنشوب القتال فيها، واستطاع أبو حاطمة ان يعيد الهدوء إلى المدينة. وغادرها للمرة الثانية ليلتقي بالجيش العباسي خارج أسوار مدينة اطرابلس. وانتهت المعركة بمقتل أبي حاطمة وهزيمة الأباضيين[72] وبذلك انتهت الإمامة الأباضية الثانية.

68– الشـماخي، السـير، ص 133. وقارن ، ابن عذاري، البيان، مجلد 1، ص 61– 72.

69– تاهـرت هذه مينة قديمة، تقع باقصى الجنوب الجزائري. وتعو إلى فترة ما قبل العصر الإسلامي. وتاهرت الاحدث عهدا انشأها عبد الرحمن بن رستم أول أمام أباضي. وهي لا تبعد عن تاهرت القيمة كثيرا.

70– ابن الاثير ، الكامل، المجلد 5، ص 458. وقارن الشماخي السير ، ص 134.

71– الرقيق، نفس المصر، ص 146–7. وابن خلدون، العبر مجلد 6، ص 113.

72– الشـماخي، السـير ، ص 136، وابن خلون ن العبر ، مجلد 6، ص 79. والكامل، مجلد 5، ص 290.

ولقد ساد الغموض حركة الأباضيين بعد هذا الحدث إلى ظهور الإمامة على يد عبد الرحمن بن رستم في تاهرت سنة 160 هـ – 777م. ويذكر المؤرخون[73] الأباضيون ان عبد الرحمن بن رستم، أبان فترة الغموض التي اشرنا إليها، كان إماما مكتوما.[74] ومما يؤيد هذا القول ان أبا حاطمة كان يرسل إليه بأموال الزكاة. وهذه المعلومات تفيد بان أبا حاطمة لم يكن إلا إمام دفاع.[75]

ويبدو ان عبد الرحمن إبان الفترة التي أطلقنا عليها فترة الغموض كان يعمل على تقوية مركزه في الوسط الأباضي ولذا لقب بلقب أمير المؤمنين الذي أطلقه عليه أنصاره الأباضيون.[76]

وربما يبدو لأول وهلة غرابة ما تعرضت له القيادات الأباضية الأولى من أزمات، وما تمتع به عبد الرحمن بن رستم من إمامة يكتنفها الهدوء والسلام. ومن الطبيعي ان تختفي الغرابة بمعرفة ان من سبقه من القيادات قد اختارت اطرابلس مركز للدولة الأباضية، وهي المدينة التي تقع على طريق القيروان. ومن المعروف ان الأخير قد شكلت قاعدة الانطلاق نحو أراضي المغرب، منذ تأسيسها من طرف عقبة بن نافع في عهد الأمويين والعباسيين.

73– محمد على دبوز، تاريخ المغرب الكبير، القاهرة، 1963، مجلد 3 ص، 287، 293–4. والشماخي، السير، ص 139.

74– يطلق الأباضيون على امامهم في حالة السلم أمير المؤمنين، وعندما يقعون تحت سلطة خارجية، يطلقون عليه أمام الكتمان.

75– يختار الأباضيون رجلا منهم يطلقون عليه أمام دفاع، في حالات الحرب والتهديد وهذا عندما لا يكون ثمة أمام ظاهر.

76– الشماخي، السير ، ص 139.

ولم يتمتع عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم،[77] الذي خلف والده في الإمامة، بالاستقرار في أيامه الأولى، فلقد كان عليه ان يواجه ما يسميه الأباضيون حركة (النكار) والمعتزلة.[78] واستطاع ان يتخلص من كليهما ليتفرغ لبناء الدولة الرستمية وإدارتها.[79]

ويبدو انه هذا التاريخ، لم يكن ثمة ما يثبت ان نفوسة كانت خاضعة مباشرة لحكم الرستمين بتاهرت.[80] ولكن الاعتراف بالإمام الرستمي، والدعم المادي والمعنوي له، لا يشوبه الجدل. ولكن هذه الصلة والتبعية قد تدعمت بوصول الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة في طريقه لأداء فريضة الحج. فلقد نزل ضيفا على أبي مهدي الويغوى.[81] ثم انتقل إلى فرقة شروس. وهناك نصحه العلماء بعدم مواصلة الرحلة، بسبب الخوف على حياته من العباسيين. فاستجاب الامام عبد الوهاب إلى هذه النصيحة واستقر بقرية (ميرى) بجبل نفوسة منتظرا امن الطريق.[82] وارسل إلى علماء الأباضية في الشرق طلبا للمشورة. وكانت نصيحتهم تأجيل الأمر إلى العام الذي يليه.

77– دبــوز، نفس المصدر، ص 55، وقــارن، C.Bossworth, the Islamic Dynasties Edinburgh, 1967, p22.

78– (النــكار) هم أولئك الذين عارضوا امامة عبد الوهاب بن عب الرحمن بن رســتم، أنظر، الشماخي، الســير 154–5. ودبوز، نفس المصدر، ص 474–8. وانظر أيضــا Chroniqu d'Abu Zakaria, ed E.Masqueray. Algeria. 1878. pp. 57-67

79– الشماخي السير، 154–8. الباروني، نفس المصر ص 34.

80– الشماخي، السير ص 154–5.

81– ويغــو عبارة عن قريــة قيمة، تقع إلى الغرب من قرية شــروس حاضرة الجبل.

82– ميري قرية قيمة، تقع في الجنوب الشــرقي لمدينــة جادو، والمبنى الوحيد القائم هو المسجد، الذي درس فيه الامام الرستمي عبد الوهاب.

فاستقر الامام عبد الوهاب بجبل نفوسة. وكان ان ترك ابنه افلح بتاهرت. وانشغل عبد الوهاب بالتدريس، وإيجاد الحلول لما يتعرض له الأباضيون من نوازل في المجال الديني.

ولقد انتفضت قبيلة هوارة التي كانت تنتشر جموعها في شمال جبل نفوسة، إلى الشرق منه، في وجه حاكم اطرابلس العباسي، فقام إبراهيم بن الأغلب بإرسال ابنه عبد الله على رأس جيش لاخماد هذه الانتفاضة. وعندما تلقت هوارة هذا الخبر علمت ان ليس باستطاعتها مواجهة جيش ابن الاغلب. فارسلت إلى الامام عبد الوهاب، طلبا للنجدة. ولم يكن الامام ليرفض هذا الطلب الذي يتيح له بسط النفوذ الرستمي على منطقة من الاهمية بمكان.

ويبدو ان عبد الله بن الاغلب قد علم بهذا الحلف، فتجنب قتالهم وفضل الاحتماء داخل مدينة اطرابلس. والتقى الامام عبد الوهاب ومعه اهالي نفوسة خارج اسوار المدينة بجيش هوارة.[83] ولم يجد ابن الاغلب بدا، بعد سماعه بوفاة ابيه، الا ان يتوصل إلى اتفاقية مع الامام عبد الوهاب، الذي كان يحاصر المدينة. وكان اهم ما جاء في هذه الاتفاقية ان تصبح الاراضي الممتدة من سرت شرقا إلى جنوب صفاقس غربا، تابعة للدولة الأباضية الرستمية، بينما يبقى اطرابلس والساحل البحري تحت سيطرة الاغالبة.[84]

وغادر الامام عبد الوهاب جبل نفوسة عائدا إلى تاهرت بعد فترة قصيرة من عقد هذه الاتفاقية، وكان قد وافق على اختيار السمح بن الخطاب وزيرا لحكم الجبل فكان أول حاكم رستمي

83- الشماخي. السير ص 160. وقارن ابن الأثر، الكامل، مجلد 6، ص 188.

84- ابن الاثير، الكامل، مجلد 6، ص 188، والشماخي، السير، ص 161. وقارن ابن خلدون، العبر، مجلد 6، ص 121.

لنفوسة في تاريخ الأباضية،[85] ولم يستشر اهل الجبل بعد وفاته الامامة بتاهرت فيمن يخلفه، بل اختاروا ابنه ليشغل المنصب، ولم يكن امام الفئة التي عارضت هذا الاختيار الا اللجوء إلى تاهرت. فاستجاب الامام عبد الوهاب لمطلبهم وعين بدلا عنه أبو الحسن بن العباس.[86] ولم يطل المقام بابي الحسن حيث عاجلته المنية، فتولى حكم الجبل أبو عبيد عبد الحميد الجناوني. وكان عليه ان يشغل نفسه بمحاربة اتباع خلف بن السمح بن الخطاب. ولكنه لم يتمكن من القضاء عليهم ابان فترة حكمه. وكانت نهاية هؤلاء الذين عرفوا باسم (الخلفية) على يد خليفة أبي عبيد، الذي قضى على خلف نفسه في مواجهة بالجهة الشرقية من الجبل.[87]

ولقد توفي الامام عبد الوهاب في سنة 211 هـ – 826م. ولم يترك وصية بخصوص خليفته في الامامة. ولكن اتباعه لم يكن امامهم الا التكتل حول الرجل المتمرس بشؤون الدولة والعارف بالمذهب الأباضي، افلح بن عبد الوهاب، فاختير اماما للدولة الرستمية بتاهرت.[88] ويجمع الأباضيون على ان فترة حكمه كانت الفترة الذهبية للدولة الرستمية. وكان الامام افلح قد عين قبل وفاته ذر بن وسيم حاكما لجبل نفوسة. ولكن ذر هذا لم يمكث في المنصب سوى سبعة اشهر.[89]

ولقد توفي الامام افلح في سنة 240 هـ – 854م. عن أربعة

85- الشماخي، السير، ص 161، Abu Zakaria, chroniqu, pp- 128–9

86- الشماخي، السير، ص 180–1.

87- المصدر السابق، ص 196–7.

88- دبوز، نفس المصدر، ص 527، وقارن Bosworth, op, cit, p. 22.

89- الشماخي، السير، ص 215–7.

ابناء، وهم: أبو بكر، محمد، يعقوب، ويقظان. وكان الاخير اكبر هم سنا واصلحهم للامامة. ولكنه كان مسجونا ببغداد وقت وفاة ابيه. فكان الاتفاق على ان يتولى أبو بكر الامامة على ان يتنازل لاخيه اذا اطلق سراحه.[90] وبعد فترة قصيرة رجع اليقظان إلى تاهرت. ولكن بمقدمه حدثت انتفاضة مسلحة ادت إلى قتل الامام أبي بكر في سنة 241 هـ – 855. وكان جمع من الأباضين قد وقفوا على الحياد ابان الصراع الذي عاشته تاهرت. الامر الذي شجع محمد بن مصالة، امير حصن هوارة، بشمال تاهرت، على انتهاز هذه الفرصة، والاستيلاء على مدينة تاهرت. ولقد كان هذا الحدث عملا لتجمع الأباضيين حول اليقضان، وحال وصول النجدة من أهالي نفوسة حاصر اليقظان المدينة. وقام بارسال وفد من نفوسة إلى محمد بن مصالة، ليطلب منه مغادرة المدينة دون إراقة الدماء. ويبدو ان محمد بن مصالة لم يكن بداية راغبا في البقاء بتاهرت، بل كان غرضه استتباب الامن وعودة الهدوء إلى تاهرت. ولذلك وافق على طلب الوفد وغادر المدينة.[91]

ولقد توفي الامام اليقطان، وتولى الامامة من بعده ابنه أبو حاتم يوسف، ونتيجة لعدم تقديره لهيئة الشورى، غضب عليه عمه يعقوب وكان عضوا بهيئة الشورى. فغادر يعقوب مدينة تاهرت متجها إلى زواغة. ولكنه رجع إلى تاهرت استجابة لرغبة المناصرين من الأباضيين، فانقسم الأباضيون بوصوله إلى تاهرت إلى فريقين. تناصر كل منهما احد الطرفين.

وظل الصراع محتدما بتاهرت إلى ان وصل إليها يعقوب المزاتي

90– أبو الربيع الباروني، نفس المصدر، ص 39. ودبوز، نفس المصدر، ص 562. و Abu-Zakaria, chronique. P. 185-6.

91– الباروني، نفس المصدر، ص 39، ودبوز نفس المصدر ، ص 484–5.

برفقة بعض من قومه. ولقد ادى توسطه بين الطرفين، إلى انهاء النزاع. ونصت اتفاقية الصلح على تخليها عن الحكم، وتفويض الامر إلى اختيار الناس لشغل منصب الامامة.

واتفق الأباضيون على إمامة أبي حاتم، بعد بقاء تاهرت بدون امام لفترة أربعة اشهر.[92] وفي هذه الاثناء كان أبو منصور إلياس قد اعتلى سدة الحكم بجبل نفوسة. وكان أبو منصور رجلا ذا موهبة وتدين شديد. وتتفق الاخبار التي تتعلق بهذه الفترة التاريخية، على انه كان يحظى بتقدير اهالي الجبل وما حوله.

ولقد توافق حكم أبي منصور، مع استثلال أبي العباس بن طولون بمصر، فرصة غياب ابيه، ليسير على رأس جيش باتجاه الاراضي الليبية. وكان يطمح إلى إنشاء دولة مستقلة عن الدولة الطولونية.[93] ولم يستطع ابن قهرب، حاكم الاغالبة، صد الجيش الطولوني. فتراجع ليتحصن بمدينة اطرابلس. وبمجرد دخول ابن طولون إلى مدينة لبدة، ارسل إلى أبي منصور بمن يطلب منه الاستسلام. ذلك لان الاراضي المحيطة باطرابلس كانت تابعة للدولة الرستمية. فما كان من أبي منصور الا التقدم بجيشه لمواجهة ابن طولون، عند قصر حاتم شرقي مدينة اطرابلس. وانتهت تلك المعركة الكبيرة بهزيمة ابن طولون.[94] فعاد ادراجه إلى مصر. وامر أبو منصور جيشه بعدم جمع الغنائم بحجة ان الذين قاتلهم يدينون بالاسلام. ولذا وجد جيش الاغالبة، القادم من تونس إلى مكان الموقعة، الغنائم بانتظاره.

92– دبوز، نفس المصدر، ص 584–5.

93– الشماخي، السير، ص 225، ابن عذاري، البيان، مجلد 1، ص 118. أنظر أيضا ، ابن الاثير، الكامل، مجلد 7، ص 224.

94– الشماخي، السير، ص 225، ابن عذاري، البيان، مجلد 1، ص 118–9.

وكان على أبي منصور، بعد عودته[95] إلى الجبل التصدي، لابن خلف، الذي طفق يزعزع الامن في نواحي الجبل. فتبعه حتى جزيرة جربة بتونس. وهناك تم القبض عليه. ولقد اطلق سراحه بعد ان قطعت احدى رجليه وانتهى الامر بتخليه عن ما تنادى به (الخلفية) اتباع خلف الأب.[96]

ولقد اتسمت فترة حكم أبي منصور إلياس باستتباب الامن، والحفاظ على الاراضي التابعة للدولة الرستمية في الشرق. وبعد وفاة أبي منصور تولى حكم الجبل افلح بن العباس للمرة الثانية. واثناء حكمه للجبل جمع الاغالبة جيشا كبيرا بغرض غزو الاراضي المصرية. ولا يعرف السبب الحقيقي لاعتراض اهالي نفوسة لمسيرة هذه الحملة، بالقرب من قصر مانو ومدينة صبراته. ولكن المعروف ان جيش واهالي نفوسة تكبدوا هزيمة كبرى. وكان من نتائج المعركة فقدان الجبل للكثير من خيار مقاتليه، اضافة إلى خسران العديد من العلماء.[97] وعندما عاد حاكم الجبل افلح بن العباس إلى مقره بالجبل، قابله السكان بموجة من الغضب، وطالبوه بالتنحي عن الحكم.

ويبدو ان ثمة من كان يناصر لبن العباس ولا يحمله هذه الخسارة الكبرى بقصر مانو. واذا لم يرضخ لتلك المطالب. ولك استمرار الحركة الغاضبة ضده، ادت به إلى التشاور مع أبي معروف، حاكم قرية شروس، لعلو قدمه في العلم.[98] ويبدو ان ابا معروف قد اشار عليه بتلبية رغبة المناوئين، فتنحى عن الحكم. ولكن بعد فترة

95- الشماخي، السير، ص 95. وقارن، ابن الاثير، الكامل، مجلد 7. ص 225.

96- الشماخي، السير، ص 224-5. الباروني، نفس المصدر، ص 42-3.

97- الشماخي، السير، ص 267-70. ابن عذاري، البيان، مجلد 1، 129.

98- علي معمر، نفس المصدر ، الجزء الثاني، ص 130.

قصيرة اعيد إلى منصبه.

وانتهت حياة الامام الرستمي أبي حاتم بالاغتيال، فتولى اخوه الامامة، على الرغم من ان ابنه كان مسئولا عن قتل عمه.[99] وكان ذلك في سنة 294 هـ - 907م. وعلى العموم، ولم يكتب للدولة الرستمية البقاء طويلا بعد هذا الحدث. فقد دخل الجيش الفاطمي مدينة تاهرت في سنة 296 هـ - 909م. وكان ذلك ايذانا بخروج الدولة الرستمية من مسرح التاريخ.[100]

ولقد ظل جبل نفوسة بعد سقوط الدولة الرستمية مستقلا بذاته، وبعيدا عن سيطرة القوى الخارجية. وباءت كل المحاولات للاستيلاء على هذه المنطقة بالفشل. ولم يتحقق هذا الفعل الا بعد زمن طويل. وكان ذلك ابان حكم الاتراك لليبيا.

وانتقل تعيين حاكم جبل نفوسة بعد انهيار الدولة الرستمية إلى لجنة مشكلة من علماء ومشايخ الجبل. وكانوا في بعض الاحيان يختارون حكاما لمناطق الجبل المختلفة.

وتندر المعلومات عن الأباضيين، خاصة بعد سقوط الدولة الرستمية، وفي المراجع غير الأباضية. اما المراجع الأباضية فينقصها الترتيب الزمني لأولئك الرجال الذين حكموا بجبل نفوسة. ولذلك بذل الجهد في هذا البحث لمحاولة متواضعة، وصولا إلى تصنيف زمني لحكام الجبل. اضافة إلى التطرق إلى ذكر بعض الاحداث التاريخية ذات العلاقة. ويبدو ان افلح بن العباس قد توفي بعد فترة قصيرة من دخول الفاطميين إلى تاهرت. وبما ان الجبل فقد الكثير من الرجال

99- أنظر دبوز، نفس المصدر ، ص 609.

100- ابن عذاري، البيان، مجلد 1، ص 197.

في معركة مانو، فقد اتفق مشائخ الجبل على محمد بن عبد الله الخيار، ليكون امام للدفاع.[101] ولم يلبث ان تولى المنصب بعده أبو يحيى زكريا الأرجاني، في بدايات القرن الرابع الهجري.[102]

والراجح انه في عهد أبي يحيى هذا، قام الخليفة الفاطمي عبيد الله، بارسال جنده إلى جبل نفوسة. ولكن اهالي نفوسة تمكنوا من صدهم بمعركة الجزيرة في وادي شروس. ولم تكن المحاولة الاخرى التي قام بها الفاطميون بمهاجمة (تاركت) إلى الغرب من شروس أفضل من سابقتها.[103] وتجدر الإشارة إلى اغتيال أبي يحيى، قرب نهاية المعركة من قبل احد اعوانه، في سنة 310هـ – 922م. وعلى الرغم من وجود أبي يحيى حاكم الجبل في هذه المعركة، يذكر ابن عذاري ان قائد الأباضية كان يدعى أبو بطة.[104]

ولقد اتفق اهالي نفوسة على اختيار أبي عمرو بن منصور إلياس خلف لأبي يحيى، ولكنه تلبية لرغبة اتباعه ترك الحكم بعد فترة وجيزة. وكان الذي ولي المنصب بعده، أبو يحيى ارجواني. واثناء حكمه هاجم العباسيون الجبل. فتصدى لهم أبو يحيى. وباءت هذه المحاولة للسيطرة على جبل نفوسة مرة اخرى بالفشل.[105]

101– الشماخي، السير ، ص 236–7. علي معمر ، نفس المصدر، الجزء الثاني، ص 147–50.

102– الشماخي، السير ص 243. علي معمر، نفس المصدر، الجزء الثاني، ص 151–52.

103– الشماخي، السير، 243. تيركت قرية قديمة. 42 كلم إلى الغرب من كاباو.

104– ابن عذاري، البيان، ص 187.

105– الشماخي، السير، ص 244، علي معمر، نفس المصدر، الجزء الثاني، ص 155.

وأثناء رجوع أبي يحيى من هذه المعركة إلى (جادو) اغتاله احد رجاله. فتكرر المشهد والمصير الذي واجهه والده اثناء مهاجمة الفاطميين لمنطقة (تاركت)، ولكن أبا يحيى اوصى اصدقائه قبل وفاته، ان يكون زايد بن افصيط الدرفي خلفا له في الحكم. ويبدو ان اهالي نفوسة لم يعملوا بهذه الوصية. وطلبوا من أبي عمرو بن أبي منصور إلياس ان يشغل المنصب. فاستجاب لهم قائلا : (لو لا ان اكون كمن قتل نفوسة مرة اخرى ما رجعت في اموركم).[106]

وابان حكم أبي عمرو، كان أبو خزر يتجهز للانتفاضة ضد الفاطميين بتونس.[107] فقام بارسال مبعوث إلى جبل نفوسة بقصد التحريض ومشاركة اهالي نفوسة في الثورة. وعرض أبو عمرو الامر على علماء الجبل ومشائخه. فرفضوا الدعوة معتذرين بفقدان الكثير من المحاربين في معركة (مانو)، واذا فالظرف لا يسمح بفتح جبهة جديدة ضد الفاطميين الاقوياء. وعلى الرغم من ذلك ولم يكن امام أبي عمرو الا الأسلوب السياسي، فوعد المبعوث بالمشاركة في هذه الثورة اذا تغيرت الاحوال إلى الافضل.

ولم يشهد أبو عمرو هذه الانتفاضة، حيث وافاه الاجل، وتولى مكانه ابنه أبو زكريا. ووفقا للمصادر الأباضية كان اعلم من انجبتهم نفوسة. ومرت فترة حكمه، التي دامت ما بين ستين إلى سبعين سنة في هدوء وسلام.[108] وجاء في مدحه: (لم تر معه نفوسة نكبة).

ولقد ثار أبو خزر في وجه الفاطميين في عهد أبي زكريا. ولكنه هزم، وفر ليجد ملاذا له في جبل نفوسة. ونتيجة للجهود التي بذلها

106– الشماخي، السير، ص 318.

107– الباروني، نفس المصدر، ص 45. الشماخي، السير،ص 349–50.

108– الشماخي، السير، ص 318.

صديقه أبو نوح، عفا عنه الخليفة الفاطمي. وعاد إلى المهدية حيث استقبل استقبالا حسنا.[109]

وعندما اكتمل بناء مدينة القاهرة بمصر، قرر الفاطميون الانتقال إليها، فطلب الخليفة الفاطمي أبو تميم من أبي نوح وأبي خزر مرافقته. فوافق أبو خزر واستعفى الاخر. وغادر الاخير المهدية إلى ورجلان بجنوب الجزائر.[110]

ويبدو انه في الفترة التي قضاها أبو زكريا في حكم الجبل، قليل من الرجال عينوا لادارة مناطق صغيرة. وعلى العموم كان الدور المنوط بهم مساعدة الحاكم في تسيير امور الجبل. وكان محمد الدرفي احد هؤلاء النفر، وكان نفوذه مقصورا على جادو وضواحيها. وبعد وفاته خلفه ابنه أبو يحيى يوسف في شغل هذا المنصب. وفي عهد الاخير هاجمت جماعة من زناتة منطقة جادو، وتمكنت من تدمير قرية (إدرف)[111] وكان أبو يحيى بن ماطوس الشروسي، في عهد أبي زكريا حاكما بقرية شروس. ولقد اشتهر بالعلم والتدين. وانشأ مدرسة عرفت بمدرسة ابن ماطوس. وجذبت إليها الكثير من طلاب العلم الأباضيين.[112] ولقد عاصر ابن ماطوس عبد الله بن محمد اللالوتي، الذي كان يحكم (لالات).[113] كما تولى تلميذه يحيى بن سفيان الحكم في نفس المكان.

109– المصدر السابق، ص 354.

110– المصدر السابق، 354–7.

111– المصدر السابق، ص 288.

112– المصدر السابق، ص 276–8. علي معمر ، نفس المصدر، الجزء الثاني، ص 17–60.

113– الشماخي، السير، ص 238–9. علي معمر، نفس المصدر، الجزء الثاني، ص 173–9.

وتحوطا لما يمكن ان يزعزع الامن الذي تنعم به الناس في عهد أبي زكريا، طلب منه ان يوصي بمن يخلفه في حكم الجبل، فقال لهم، انه يوصي بثلاثة رجال وهم أبو زكريا اللالوتي، ولكن ما لا يؤهله وجوده بالركن الاقصى من الجبل. وأبو يعقوب البغتوري ولكن اهل نفوسة لا يرون ان تتقدم قبيلته عليهم. وعيسى أبو داوود سليمان الدرفي، فاذا قبل فهو الافضل.

وعندما توفي أبو زكريا، صرف المشائخ النظر عن عيسى الدرفي. واختاروا أبو موسى عيسى. ثم اجتمع الراي بعد فترة وجيزة على أبي هارون موسى بن هارون الباروني، الذي قرر الانتقال إلى قرية (ابناين) بمنطقة كاباو. وذلك رغبة في مجاورة امراة اشتهرت بالعلم. وكانت تدعى الجدة.[114] وبنى في هذه القرية مسجدا ومدرسة.[115]

واذا عرجنا على منطقة جادو، فاننا سنسمع عن أبي عبد الله بن محمد بن يحيى الدرفي، وعن اخيه أبي داوود سليمان الذي خلفه في حكم بني زمور.[116] والراجح ان سليمان التندميري قد خلف أبا هارون موسى. ولكن سليمان تنازل عن الحكم لابي عمرو ميمون الشروسي. وفي عهد هذا الاخير وصلت إلى شروس قافلة تجارية قادمة من بلاد السودان (وسط إفريقيا).[117] وكان ان قام وفد للقافلة بتقديم هدية ثمينة لابي عمرو. ولكنه رفض قبول الهدية. واهاب

114– الشماخي، السير، ص 321.

115– المصدر السابق، ص 301، أنظر أيضا ، أبو اليقظان إبراهيم. سليمان باشا الباروني في اطوار حياته، الجزائر 1956، ص 9–10.

116– علي معمر ، نفس المصدر، الجزء الثاني، ص 172. الشماخي، السير، ص 287–8.

117– الشماخي، السير، ص 273.

بالاهالي التعامل مع أولئك التجار.[118] ويبدو ان ابا عمرو – نتيجة لورعه الشديد – احس بثقل المسؤولية، فتخلى عن منصب الحكم.

ووجب ان نشير ايضا إلى أبي الربيع سليمان بن هارون الباروني، الذي تولى حكم جبل نفوسة، تذكر المصادر الأباضية، انه كان تلميذا لأبي زكريا اللالوتي. وانه قتل وهو في سن السابعة والعشرين، بعد ان نقل مركز اقامته إلى قرية (ابناين).[119]

وتذكر المصادر الأباضية، ومن نقل عنها من الباحثين، ان نزاعا بين شروس وجارتها قرية ويغو، قد تطور إلى نزاع مسلح. وتسببت الحرب بينهما في تدمير قرية شروس، التي كان يحكمها أبو الشعثاء البغتوري. اما ويغو فكان يديرها أبو عبد الله الاكبر.[120]

وما يستشفه المرء من قراءة الاحداث، ان ابا الفضل سهل تزامن اختياره حاكما عاما لجبل نفوسة مع اضطرابات بمناطق متعددة من الجبل. ولقد نال شهرة واسعة بفضل جهوده التي اثمرت اعادة الهدوء والامن للمنطقة. ويبدو انه الوحيد الذي تفرد بمهاجمة غدامس، على إثر ما تردد من اخبار عن الفساد المستشري بالمدينة، كما انه الرجل الذي ينسب إليه إنشاء حاميات في مواقع استراتيجية من جبل نفوسة. وذلك لحماية السكان من غارات القبائل.[121]

وأدى سقوط الدولة الرستمية بأهالي جبل نفوسة، إلى التفكير فيما يحافظ على وحدة الجبل ومنعته أمام الاطماع الخارجية. وتوصلوا

118– المصدر السابق، ص 274.

119– المصدر الســـابق، ص 299. علي معمر، نفس المصدر، الجزء الثاني، ص 193–6. أبو اليقظان نفس المصدر، ص 12.

120– الشماخي، السير، ص 326.

121– المصدر السابق، ص 275. علي معمر ، نفس المصدر، ص 169.

إلى ابتداع فكرة تتمثل في تشكيل لجنة من العلماء، وتكون مهمتها اختيار الحكام والتشاور فيما يخص شؤون الجبل، وتتكون هذه اللجنة من رجال ينتمون إلى مناطق متعددة من الجبل. ولقد عرفت هذه اللجنة عند الأباضيين باسم (العزابة).[122] وربما يرجع الفضل في تنظيم هيكلية اللجنة وتوضيح اختصاصاتها وتطوير آلياتها إلى أبي عبد الله محمد بن بكر، في اواخر القرن الرابع الهجري – العاشر – مسيحي.[123]

وكان المعز لدين الله الفاطمي، عند مغادرته مدينة المهدية إلى مصر، قد اوكل حكم افريقية (تونس) إلى بلكين بن زيري. وبمباركة الخليفة الفاطمي العزيز بالله، اتسع حكمه ليصل إلى نواحي سرت وبرقة بليبيا. الامر الذي جعل من ابن زيري مؤسسا لدولة ستقوم بدور كبير في تاريخ المغرب العربي.

ولقد انقسمت دولة بني زيري إلى قسمين مع نهاية القرن الرابع الهجري – العاشر مسيحي واصبح بنو حماد حكاما للجزء الغربي، متخذين من قلعة بني حماد مركزا للحكم، بينما احتفظ الزيريون بالجزء الشمالي الشرقي. وكانت عاصمتهم القيروان.[124] وتحول ولاء المعز بن باديس من الفاطميين إلى العباسيين، قرابة منتصف القرن الخامس الهجري – الحادي عشر مسيحي.[125] ولقد نظر الفاطميون

122– لمزيد مـــن التفصيل أنظر، علي معمر، نفـــس المصدر، لجزء الثاني، ص 97–110.

123– الشـــماخي، الســـير، ص 401، علي معمر، نفس المصدر، الجزء الأول، ص107.

124– ابن خلـــون، العبر، مجلد 6، ص 155–67. عبد الوهاب، نفس المصدر، ص 105. أنظر أيضا، Bosworth نفس المصدر، ص 26–7.

125– ابن خلدون، العبر ، مجلد 6، ص159، عبد الوهاب، نفس المصدر، ص 111–2.

إلى هذا الامر بعين السخط، ولم يكن بامكانهم توجيه الجيوش نحو المغرب. ذلك لان اولويتهم كانت مركزة على المشرق حيث الدعم الحقيقي لدولتهم الفتية، وحيث المنافس الحقيقي لهم والممثل في الدولة العباسية. ولذا قام الفاطميون بترغيب القبيلتين العربيتين، بني هلال وبني سليم في خيرات المغرب، واذنوا لهم بعبور نهر النيل. وكان الفاطميون يقصدون بهذا الفعل الانتقام من بني زيري ومعاقبتهم على نقض العهود، بتحول ولائهم للعباسيين.

وانطلقت جموع القبيلتين يحدوها الأمل في الثروة والسلطان. وكانت أثناء سيرها تدمر وتحرق ما تمر به من خضرة وتقلق ما تمر به من تجمعات سكنية.[126] ولم تكد تصل طلائعها إلى تونس حتى انسحب بنو زيري من القيروان، وتحصنوا بمدينة المهدية. وظل بنو زيري بالمهدية حتى اكتسحتها جيوش النورمانديين في القرن السادس الهجري – الثاني عشر مسيحي.[127] ولم يخرجها منها سوى جيوش الموحدين، التي وضعت يدها أيضا على ممتلكاتها بني حماد وبني زيري.[128]

وجب ان نذكر ان العرب المسلمين الذين وصلوا إلى بلدان المغرب منذ القرن الأول الهجري – السابع الميلادي، لم يرق لكثير منهم الاستقرار والبقاء في البلاد المفتوحة. ان ظاهرة التوطن هذه في بلدان المغرب لم تكن ظاهرة بشكل ملموس، إلا في القرن الخامس الهجري – الحادي عشر مسيحي. وبداية هذه الظاهرة كانت

126– ابن خلدون ، العبر، مجلد 6، 13–5 التيجاني، رحلة، ص 17.

127– ابن خلدون، العبر، مجلد 6 ، ص 161–2

128–عبد الوهاب، نفس المصدر، ص 121.

باستقرار مجموعات منهم في الأراضي الممتدة بين برقة والقيروان.[129] ولا جدال ان مقدم قبيلتي بني هلال وبني سليم، قد اضفى عليهما طابع الاستقرار والتوسع والهيمنة. ولم تكن منطقة جبل نفوسة بمعزل عن التأثر بهذه الظاهرة.[130]

ولقد أشير فيما سبق إلى ان أسرة أبي منصور إلياس حكمت الجبل لفترة غير قصيرة، إبان القرن الرابع الهجري – العاشر مسيحي – وتلتها على هذا النسق أسرة الباروني، التي استقر حكامها في قرية ابناين، ثم في يفرن الواقعة في الجهة الشرقية من جبل نفوسة. وكان الحاكم الثالث من هذه الأسرة، أبو زكرياء بن يحيى إبراهيم معدودا من الشخصيات البارزة في تاريخ الجبل،[131] إبان القرن الخامس الهجري – الحادي عشر مسيحي. وولداه أبو عبد الله وأبو منصور توليا أيضا الحكم بعد أبيهما.[132] ولا توجد أدلة تساعد في تحديد فترة حكمهما، إلا ان عهدهما – كما يبدو – كان عهد سلام واستقرار.[133]

ولقد قام قراقش في عام 568 هـ – 1172م، بجمع جيش كبير – كما فعل العباس بن طولون من قبل – وتقدم به صوب المغرب، املا في ترسيخ دعائم الحكم العباسي.[134] ونتيجة لسوء

129– ابن خلدون، العبر، مجلد 6، ص 12–72، التيجاني، رحلة، ص 15.

130– الطاهر الزاوي، معجم، ص 144–5، ذكر الشماخي ان مجموعة قليلة من العرب واليهود أيضا كانت مستقرة بالجبل، قبل قدوم بني هلال وبني سليم إلى المنطقة.

131– الشماخي، السير، ص 539.

132– المصدر السابق، ص 359. وقارن، اليقظان، نفس المصدر، ص 16.

133– الشماخي، السير، ص 546. اليقظان، نفس المصدر، ص 19.

134– وهو احد جنود صلاح الدين الايوبي – أنظر، ابن الاثير، الكامل، مجلد 11، ص 25، 256. وانظر، التيجاني، رحلة، ص 112.

الفهم الذي حدث بين قراقش ورفيقه قراتكين، انقسم الجيش إلى فريقين. فسلك الأخير الطريق بمحاذاة الساحل حتى وصل إلى قفصة بتونس، حيث لقي حتفه. أما قراقش فقد اتجه إلى الجنوب، مخترقا واحة سيوة، ثم إلى زويلة في الجنوب الليبي. واستطاع القضاء على أسرة بني الخطاب، التي كانت تحكم المنطقة لفترة من الزمن.[135]

وقام قراقش أيضا في عام 582 هـ – 1186م. بمهاجمة أراضي جبل نفوسة، بمساعدة بعض القبائل العربية. وتمكن من الاستيلاء على مدينة اطرابلس.[136] وفي هذه الأثناء نجح يحيى وعلي إبنا غانية في نزع المهدية وصفاقس وقابس من السيطرة الموحدين.[137] وسيطروا أيضا فيما بعد على مدينة تونس في عام 586 هـ – 1191م.[138] وفي ذات السنة التقى الموحدون بجيشي يحيى بن غانية وقراقش في منطقة (الحامة)، قرب مدينة تونس، وكان النصر في هذه المعركة حليف الموحدين، الذين سيطروا بعدها على كل من مدينتي قابس وطرابلس.[139] ولقد تمكن ابن غانية من الفرار إلى الصحراء باتجاه الجنوب التونسي.

و لم يطل الفرار بابن غانية حتى عاد ليستولي على مدينة

135– التيجاني، رحلة، ص 113. ابن خلدون، العبر، مجلد 6 ص، 191–2، أنظر أيضا، الزاوي، الفتح العربي، ص 239.

136– التيجـــاني، رحلة ، ص 113. الزاوي، الفتح العربي، ص 240، وقارن ابن الاثير، الكامل، مجلد 10، ص 256.

137– المزيـــد من المعلومات عن ابني غانيـــة أنظر، ابن خلدون، العبر، مجلد 6، ص 190–1.

138– الزاوي، الفتح العربي، ص 238–9.

139– ابن خلدون، العبر، مجلد 6، ص 238–9.

القيروان.[140] ونجح قراقش هو الآخر في استعادة سيطرته على مدينة طرابلس، ولكنه لم يلبث ان هزم، وغادر المدينة متجها إلى ودان بالجنوب.[141] أما ابن غانية فقد حاول الاستيلاء على جبل نفوسة، ولكنه هزم في منطقة جادو. وكرر المحاولة مرة ثانية بنية الاستيلاء على شروس. ولكنه مني بالهزيمة عند موقع الجزيرة بوادي شروس.[142] واضطر حاكم الجبل آنذاك، أبو يحيى زكرياء الباروني، إلى استشارة العلماء في حكم الغنائم التي تركها جيش ابن غانية وراءه. فاشار العلماء عليه باحراقها. ولم يتلكأ زكرياء في القيام بهذا الفعل.[143]

وتصف المصادر الأباضية أبو زكرياء الباروني بالرجل المتميز علما وتدينا. ولقد استطاع بفضل هذه الشخصية ان يقنع الأباضيين بكثير من الأفكار الجديدة والاجتهادية في إطار المذهب الأباضي.[144] وربما دلت هداياه الكثيرة، التي كادت ان تصل إلى كل بيت في الجبل، على ثرائه وكرمه. ونتيجة لهذا التميز أطلق عليه الأباضيون لقب أمير المؤمنين.[145]

وكان أبو نصر التملوشايتي حفيدا وتلميذا لأبي يحيى زكرياء. ويذكر الشماخي انه من الذين تولوا حكم جبل نفوسة. وكان رجلا

140– المصدر السابق، ص 193. رحلة، ص 104–5.

141– التيجاني، رحلة، ص 244–6.

142– علي معمر، نفس المصدر، الجزء الثاني، ص 200–1. أبو الربيع، نفس المصدر، ص 49. الشماخي، السير، ص 547. وقارن التيجاني، رحلة، ص 244، 36.

143–علـــي معمر، نفس المصدر، ص 201. أبو اليقظان نفس المصدر، ص 22، الشماخي، السير، ص 547.

144– الشماخي، السير، ص 546. أطلق اسم الامام الرستمي عبد الوهاب على هذه المدرسة. واطلق على منتسبيها الوهبيون، والصحيح الوهابيون.

145– المصدر السابق، ص 546–7. علي معمر، نفس المصدر، ص 197.

مشهورا بغزارة العلم. وكان رئيسا لحلقة كما شاع عنه. والحلقة عبارة عن مجموعة من العلماء، كانت تتجول بانحاء الجبل نشرا للعلم والمعرفة.[146] وإذا أخذنا بقول الشماخي يمكننا الجزم على توليه الحكم في النصف الأول من القرن السابع الهجري – الثالث عشر مسيحي. ويكون ذلك العمل العلمي قد قام به قبل تسليمه لدفة الأمور بجبل نفوسة.

ولقد ثار أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد في وجه الموحدين حكام المغرب في بداية القرن السابع الهجري – الثالث عشر مسيحي، بافريقية (تونس). واستطاع ان ينتصر عليهم ويؤسس النواة الأولى للدولة الحفصية.[147] ولكن المعلومات التاريخية، تشير إلى ان جبل نفوسة كان يدار بواسطة الحكام الأباضيين حتى نهاية القرن السابع الهجري – الثالث عشر مسيحي، تؤكد على ان جبل نفوسة لم يخضع لسيطرة الحفصيين. وهذه المعلومات ترتبط بحاكم الجبل، الشيخ إبراهيم بن أبي يحيى الباروني، الذي كان تلميذا لعيسى بن عيسى الطرمسطي. ولقد توفي كلاهما في عام 722 هـ، 1322م.[148] ويشير الشماخي إلى وقوع معركة بين العرب وأهالي نفوسة، في عهد الشيخ إبراهيم هذا.[149] وتدلل هذه المعلومات إلى استقرار مجموعات عربية بالجبل في هذه الفترة.[150]

146– الشماخي، السير، ص 553–4.
147– عبد الوهاب، نفس المصدر، ص 128. Rossi , op, cit p. 554.
148– الشماخي، السير، ص 554.
149– المصدر السابق، ص 558، أبو اليقظان، نفس المصدر، ص 26–7.
150– فرسطة قرية قيمة أنشئت على سفح جبل، إلى الشرق من كاباو، وهي مهجورة الان، ولكن مبانيها لازالت قائمة.

ونستطيع ان نتبين اضمحلال النفوذ الأباضي في الجبل في المنتصف الأخير من القرن الثامن الهجري – الخامس عشر مسيحي. فعلى الرغم من احتفاظ الأباضيين بولائهم لعلمائهم ومشائخهم، فزيادة أعداد العرب والنفوذ الخارجي اضحى شيئا فشيئا ظاهرا للعيان، ولذا لم يكن بوسع المشائخ اختيار حكام الجبل، ولكن بقي باستطاعتهم اختيار من يرونهم اهلا للاهتمام بشؤون مناطقهم الصغيرة.[151]

وكانت طرابلس، ولفترة طويلة من الزمن، مدينة تتناوب السيطرة عليها، دول ومجموعات إسلامية، ولكن في سنة 916هـ – 1510م، وقعت تحت سيطرة الاسبان.[152] وكان هذا الحدث بادية منعطف تاريخي جديد. وما يهمنا هنا هو ان جبل نفوسة لم يتأثر البتة بهذا الغزو، إذ ان الاسبان لم يتجاوزوا ضواحي طرابلس. وهكذا كان الحال بالنسبة لفرسان القديس يوحنا، الذين قدموا من مالطا، لاستلام المدينة من قبل الاسبان في عام 937هـ – 1530م.[153]

واستطاع القائد التركي، درغوت باشا، الاستيلاء على مدينة جربة والمهدية وتونس،[154] قريبا من منتصف القرن العاشر الهجري – الخامس عشر مسيحي. فالتقى أبو سليمان داود بن إبراهيم في معية وفد من نفوسة بالقائد التركي في جزيرة جربة. وفي هذا اللقاء اظهر درغوت باشا حنقه حول الفوضى التي عمت المدينة أثناء غيابه. ولقد اعتذر أبو سليمان بعجز مشائخ الأباضية عن تعيين أو عزل من يتولون

151– الشماخي، السير، ص 569–70. ابن خلدون، العبر، مجلد 6، ص 277.
152– Rossi، نفس المصدر، ص 111–2.
153– المصدر السابق، ص 127. الزاوي، الفتح العربي، ص 283.
154– Rossi، نفس المصدر، ص 137.

القيادة. ولكن درغوت باشا لم يقبل هذا العذر. فوضع أبا سليمان في السجن إلى ان وافاه الأجل في سنة 967هـ – 1560م.[155] وفي هذه الفترة تمكن الأتراك من الاستيلاء على مدينة طرابلس. وبالتحديد في عام 958هـ – 1551م، وبذلك أصبح جبل نفوسة أيضا تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية.[156] واضحى تعيين من يدير شؤون الجبل بيد الوالي التركي المقيم بمدينة اطرابلس.

واستمر الحكم العثماني لليبيا لمدة قاربت أربعة قرون. وفي بداية القرن العشرين، وبالتحديد في سنة 1911 مسيحي. نجح الايطاليون في هزيمة الأتراك، ووقعت طرابلس في قبضة الاحتلال الايطالي. وأثناء فترة الحكم الايطالي، ووقعت مواجهة أخرى بين العرب والأباضيين بجبل نفوسة. فتمخضت عن كثير من الضحايا والخسائر. كما تعرضت كثير من المخطوطات للتلف والتدمير.[157] وكانت في مجملها مأساة وطنية، وإبان فترة الحكم الايطالي أيضا سادت اجواء الانتفاضات المسلحة والحركات التحريرية والجهادية.

ودخلت ليبيا مرحلة تاريخية جديدة مع انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة ايطاليا من قبل الحلفاء. فوضعت ليبيا تحت وصاية وحماية كل من بريطانيا وفرنسا. الأولى تشرف على اطرابلس وبرقة، والثانية على إقليم فزان بالجنوب الليبي.

وأخيرا وليس بآخر، صدر قرار الأمم المتحدة باعتبار ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة في أواخر سنة 1951م. وفي أول يوم من

155– رويت هذه القصة عن محمد بن زكرياء الباروني، في ملحق كتاب الشماخي، ص 174–6.

156– علي معمر، نفس المصدر، الجزء الثاني، ص 145.

157– أبو اليقظان، نفس المصدر، ص 174–6.

سبتمبر (الفاتح) تفجرت ثورة بالبلاد. ولم تمض فترة ثمانية سنوات حتى أعلن الحكم الشعبي في ليبيا. وظهر الاسم الرسمي الجديد للبلاد تحت عنوان: الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية.



حكام جبل نفوسة إبان الدولة الرستمية.

السمح بن الخطاب (إمامة عبد الوهاب)

خلف بن السمح

أبو الحسن بن العباس

أبو عبيد الجناوني

العباس بن أيوب (إمامة افلح)

أبو منصور إلياس (إمامة اليقظان)

أفلح بن العباس (الولاية الثانية)

أفلح بن العباس (الولاية الثانية)

حكام جبل نفوسة منذ سقوط الدولة الرستمية حتى نهاية القرن الرابع الهجري العاشر مسيحي

أفلح العباس

محمد ابن أبي الخير

أبو يحيى الأرجاني

أبو عبد الله أبو عمرو بن منصور إلياس

أبو زكرياء يحيى الأرجاني

أبو عبد الله منصور إلياس

أبو زكرياء أبو عبد الله

أبو موسى عيسى

أبو هارون موسى

سليمان التندميري

أبو عمر الشروسي

(لالات)	(شروس)	(جادو)
أبو عبيد الله جلدسين		محمد الدرفي
	أبو يحيى ماطوس	أبو يحيى يوسف
أبو زكرياء يحيى		
	أبو الشعثاء	
	أبو معروف	

(ويغو)	(بنو زمور)
	أبو عبد الله أبو داود
أبو عبد الله الأكبر	

حكام جبل نفوسة منذ نهاية القرن الخامس الهجري – الحادي عشر مسيحي، حتى منتصف القرن الثامن الهجري – الرابع عشر مسيحي.

أبو الربيع سليمان الباروني

أبو الفضل مسهل

أبو زكرياء يحيى الباروني

أبو عبد الله الباروني

أبو منصور الباروني

أبو يحيى زكرياء إبراهيم الباروني

زكرياء يحيى الباروني (الشيخ)

(توفي في سنة 722هـ – 1322م).

الفصل الثاني

نالوت – كاباو

مدينة نالوت القديمة – القصر – المسجد العلوي

مدينة كاباو القديمة – قصر التخزين

مسجد تنومايت – مسجد أبناين

نالوت – كاباو
مدينة نالوت القديمة – قصر – المسجد العلوي
مدينة كاباو القديمة – قصر التخزين
مسجد تنومايت – مسجد ابناين

لا يعثر المرء في المصادر العربية إلا على قليل من المعلومات ذات الصلة بجبل نفوسة. ولذا يجد المرء نفسه معتمدا على المصادر الأباضية، التي لا يمكن ان توصف إلا بالندرة، في سبر أغوار تاريخ هذه المنطقة. أما في المجال الجغرافي، فان هذه الرقعة لم تخضع لدراسات جادة بعد. ووقفنا لهذا الغموض المعلوماتي، الذي ربما يتوفر يشكل أفضل في أماكن أباضية أخرى، وجب الاعتماد بالدرجة الأولى على المادة المجمعة من خلال الدراسة الميدانية ذات الصلة بموضوع هذا البحث وذلك من اجل خلق أرضية لدراسات أكثر عمقا وتفصيلا.

تقع مدينة نالوت على مسافة تقدر بنحو 270كم، إلى الجنوب الغربي من مدينة طرابلس. وتنتشر أطلال القرية القديمة على قمة جبل يشرف على وادي نالوت الكبير في الجهتين الشرقية والجنوبية. ويقع في وسط هذه القرية قصر التخزين، الذي يتراءى من جميع الجهات مهيمنا على سائر اطلالها. (أنظر، شكل 2،1) ويبدو المسجد الأعلى (العلوي) في الجهة الشمالية من القصر، على مسافة 15 متر تقريبا. ويحتل المسجد الآخر الذي يعرف بالمسجد اللوطي مكانا اقل انخفاضا، في الجهة الشمالية الشرقية من المسجد الأول. وعلى الرغم من تصدع بعض أجزائه، إلا انه لا زال محتفظا بمظاهر معمارية هامة.



شكل 1 منظر عام لمدينة نالوت القديمة كما تبدو من الجهة الشرقية



شكل 2 الجانب الغربي من قصر التخزين مع بقايا منازل قديمة

وإن المبنى الذي يعتقد انه كان يمثل قاعة المحكمة، لا زال هو الآخر ظاهرا للعيان. وهو لا يبعد كثيرا عن قصر التخزين (أنظر شكل 3).

وتتراص بيوت القرية مشكلة شبه قطعة واحدة من البناء، تخترقها في الأغلب طرق ضيقة ومتعرجة. وتعد هذه القرية اليوم شبه مهجورة. (أنظر شكل 4) فلقد انتقل الناس إلى مدينة نالوت الحديثة، الواقعة في الغرب والجنوب الغربي من القرية القديمة.

يقدم موندادوري (Mondadori) وصفا لنالوت القديمة على الوجه التالي :يحيط بنالوت جبال كانت في وقت ما عرضة لنشاط بركاني .وتتكون هذه الجبال – في الأغلب – من طبقات الحجر الجيري ذي اللون البني الفاتح .وتمتد الأحجار الصلبة ذات الألوان المتعددة على شكل أفقي في الطبقات المكونة للجبال .ويفصلها عن بعضها البعض أمتار قليلة .ولقد تصلبت العليا ،نتيجة للعوامل الجوية بينما ظلت المستويات الدنيا في وضع قابل للتحليل .وهو ما أدى إلى أحداث اخاديد ومنابع مائية .كما ان تسطح قمم بعض الجبال يسر بناء القرى الصغيرة عليها[158]. ويقول موندادوري أيضا، ان قرية نالوت القديمة تذكرنا بقرى جبال التبت. وإنها بوضعها الحصين هذا شكلت مناعة ضد هجمات الجيوش العربية. كما شكلت من جهة أخرى، حماية لسكانها من اعتداءات القبائل المجاورة، وينسب موندادوري تاريخ إنشاء قرى هذه المنطقة إلى القرن السادس مسيحي.

ولا يتعرض الكاتب إلى تفصيلات بخصوص مباني نالوت القديمة. ولا يهتم بما أحدثه الإسلام من تحولات عقيدية واجتماعية.

158– A, Mondadori, Irineraire Tripolis Ghudames, Verona, 1939, P – 38.

ويبدو انه نتيجة لندرة المصادر التاريخية المترجمة إلى اللغات الأوربية، والمتعلقة بهذه المنطقة، لم يتطرق إلى دور نالوت في إطار العلم والتعليم.



شكل 3 مبنى محكمة نالوت القديمة كما يبدو من الجهة الجنوبية الشرقية



شكل 4 (الصمعة) الخاصة بالمسجد الأعلى بنالوت الدالة على مكان المسجد

ويعزى موندادوري كذلك، وجود القرى المجاورة لنالوت القديمة إلى تفرعها عن القرية نالوت الأم. ويقول ان هذا التمدد ربما

كان طلبا لايجاد مصادر جديدة للمياه.[159] ويخلص إلى القول بان هذا التوسع الذي شهدته منطقة نالوت، تم عبر حقب زمنية تقدر بأربعة قرون.[160]

ولا يذكر موتيلنسكي (Motylinski) شيئا عن جغرافية نالوت .ولكنه يشير إلى موقعها الجبلي ،الذي يشرف في الجهة الشرقية على اخاديد وعيون للماء ،استعملت فقط لسقي الأغنام. أما العين التي تدعى) عين تغليس (فقد استعملت لحاجات الناس. ويوجد الوادي الذي تملأه أشجار الزيتون والنخيل ،لمسافة عشرة أميال ،إلى الجهة الغربية من قرية نالوت القديمة[161].

ويضيف ليفسكي (Lewicki.) تحديد الموقع ،ان نالوت تعد من اكبر التجمعات في الجبل الغربي ،وتعتبر محطة للاستراحة بين طرابلس ومدينة صبره .ويشير إلى أهمية موقعها ،الذي يربط بين مدينة غدامس ومدن الشمال بالساحل الليبي .كما انه يتعرض لتفسير كلمة، (Taglis) فينفي إنها كلمة بربرية لاتينية افريقية .ويجزم بأنها اشتقاق من الكلمة اللاتينية .(Acclacia) وهي شاهد على وجود مسيحي قديم بالمنطقة .ويرجع ليفسكي إنشاء قرية نالوت القديمة إلى القرن الثالث الهجري – التاسع مسيحي .ويمضي في حديثه مستنطقا التاريخ فيقول) :عندما كان العباس بن أيوب يحكم جبل نفوسة، بموافقة الرستميين ،كانت نالوت مركزا للتعليم الديني .والقليل من تاريخ هذه القرية معروف .ولكن ما نعرفه أكثر هو ما يتعلق بالقرن

159– المصدر السابق، ص 40.

160 – المصدر السابق ، ص 40

161– A- De calassanti Motylinki, le Djebel Nefousa, paris. P- 107.

الرابع الهجري – العاشر مسيحي ،حيث انقسم الجبل إلى مناطق مستقلة ،وكانت نالوت في هذه الفترة تدار بواسطة رجل يتفرد بحكم المنطقة بالطرف الغربي من الجبل[162].

ولا يتعرض الشماخي في (سيره) إلى هذا النسق من الوصف، عندما يتعرض لذكر نالوت (لآلات) من آن إلى آخر، ولكنه يشير إليها كمدينة أنجبت الكثير من العلماء. وهذا ما يدل على أهمية مركزها العلمي الديني في القرون الإسلامية الأولى.[163]

ويبدو مستغربا ان الكاتب على معمر، الذي اهتم بتاريخ الأباضية في الشمال الإفريقي، لم يسهب في الحديث عن مدينة نالوت. وكل ما يذكره متعلق بالوادي المليء بأشجار الزيتون. ويقول ان لهذه المدينة تاريخ إسلامي طويل. ولكنه لا يفصل هذه العبارة. وبالإضافة إلى اشارته إلى مصادر المياه بنالوت، يميز ماء عين تغليس بعذوبة طعمه.[164]

ويجدر بنا ان نعرج ثانية على ما كتبه موتيلنسكي، باعتباره وصفا أدق لقرية نالوت القديمة. فلقد أشار إلى ان منازل نالوت تبلغ حوالي 1600 منزل، ويحيط هذه المنازل المتراصة مبنى قصر التخزين.[165] ويحتوي على 300 حجرة، يحفظ بها الأهالي ما يحتاجونه لاهلهم ودوابهم. وفي الأمسيات ينعقد ما يشبه السوق الصغير في

162– I, Lewicki, Etudes Ibadites Africanes, partiel, Tasmya suyuh Habal Nafusa wa Qurahum, Warszovu, 1955, pp. 125.-6.

163– الشماخي، السير، ص 197–298– 313–399.

164– علي معمر، موكب، الجزء الثالث، ص 171.

165– كلمة القصر في العربية تعني المنزل الكبير الفخم، أما اســـتعمالها الدارج في الجبل فيقصد بها قصر التخزين، أو القرية بكاملها.

هذا القصر. وثمة من يبيع بضاعته مباشرة للناس، وثمة من يعطيها إلى بائع المزاد (الدلال) ليبيعها. ويوجد في موقع منخفض غير بعيد من القصر، المسجد المستخدم من قبل القاطنين بالمنطقة العليا من الجبل. كما يوجد مسجد آخر، احدث بناء من الأول، خلف طريق العزابة على مستوى أكثر انخفاضا من المسجد الأول. كما يؤكد موتيلنسكي على ان هذا القصر يعد الأكبر في سائر مناطق الجبل.[166]

ويعيد باسيي (Basset.) ذكر نفس المعلومات .ولكنه يضيف):ثمة أربعة مساجد بنالوت القديمة .احدها هو المستعمل من قبل السكان القاطنين باعلى الجبل .والآخر هو المسجد الجديد ،الذي يقع مسجد العزابة ،والرابع هو مسجد سيدي خليفة)[167].

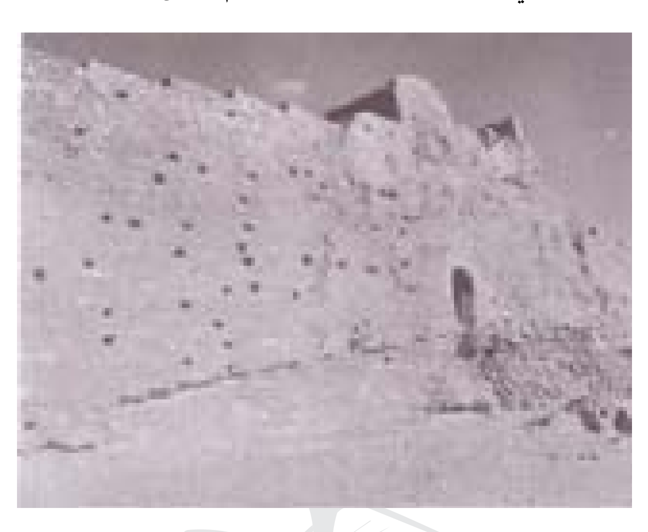
قصر التخزين

يحتل قصر التخزين موقعا في وسط بلدة نالوت القديمة. وهو مستطيل الشكل. ويبدو هذا القصر للناظر مشابها لبناء لحصن، إلا انه يختلف عنه بوجود فتحات صغيرة تتوزع على الجدار الخارجي، لتزويد الحجرات بالضوء والتهوية (أنظر، شكل 5) ولم يحظ هذا القصر بتفصيلات كثيرة من قبل الكتاب، الذين تعرضوا إلى ذكره. فيقول – موندادوري مثلا – ان القصر يبدو على هيئة قلعة ويتكون من 300 حجرة. وانه لا وجود لسلم داخل القصر، بل قطع صغيرة من الخشب مغروسة في الجدران. ويبلغ عرض كل حجرة وارتفاعها يبلغ متر واحد. وان محتويات هذه الغرف تتمثل في الشعير والقمح

166– موتيلنســـكي، نفس المصدر، ص 107. أنظر أيضـــا J, Despois, Le Djebel Nefousa, paris/ Tunis, 1935, pp. 234-6.

167– R. Rossi, les Sanctuaires du Djebel Nefousa, in journal Asiatique. X III, P. 37.

والزيت. وهي كافية لأسرة واحدة لمدة عام كامل.



شكل 5 الجانب الشرقي لقصر التخزين حيث المدخل الوحيد للقصر

ويسترسل موندادوري بالقول : (ان ثمة رجل يقوم بالحراسة في هذا القصر ووجوده كعدمه، لان أحدا لا يفكر في سرقة جاره. وعلى الرغم من ضيق المكان، فان اسواقا كانت تعقد بفناء هذا القصر. ولقد نشأت هذه الظاهرة منذ استسلم البربر على مضض للقوى المتغلبة. ولكن نالوت لم تعد اليوم قرية بربرية، بينما ارتبط قصرها المحصن بكثير من الأساطير).[168] ويرجع موندادوري بناء القصر إلى الحقبة البزنطية.[169]

168– موندادوري، نفس المصدر، ص 41–3.

169– المصدر الســابق، ص 43– وقارن، Islamic Art and Architecture in Libya, London, 1976, P-42.

ان قصر التخزين بنالوت لا زال بحالة جيدة، ويقع مدخله الوحيد في الجهة الشمالية الشرقية. ويبلغ عرضه حوالي 10.1 م، وارتفاعه 10.2 م تقريبا، أما المدخل ذاته فيتكون من شكل شبه مستطيل، ويتمثل في ردهة يبلغ طولها حوالي 43.3 م، ويكتنفها من الجانبين سدة حجرية ملتصقة بالجدار. ويظهر في وسط هذا القصر بناء آخر، حيث ترتفع جدرانه إلى مستوى أعلى من جدران القصر. ويحيط هذا البناء ممر يبلغ عرضه حوالي 1.70م. وهذا المبنى كما هو بقية القصر مشكل من حجرات التخزين، التي تمثل خمسة طوابق في جهة من القصر، وفي الجهة الأخرى تتكون من ستة طوابق (أنظر شكل 6).



شكل 6 جزء من الجانب الغربي لقصر التخزين

وإن ما يلفت النظر غياب الدرج الذي يوصل إلى الطوابق العليا من القصر، فلقد استعيض عنه بوضع قطع صغيرة من جذوع

الأشجار في الجدران وكانت هذه القطع، ولا زالت، وسيلة الصعود إلى الحجرات. والطريقة الوحيدة للحصول على الحاجيات أو وضعها بالحجرات تعتمد على تسلق المرء لهذه القطع الخشبية حتى الحجرة المبتغاة، حيث يضع المتسلق قطعة من الخشب المستطيل فوق قطعتي الجذعين المثبتتين بأسفل مدخل الحجرة، ثم يستعمل الحبل لرفع أو انزال ما يبتغيه.

وتتميز حجرات قصر التخزين بشكلها المستطيل. ويبلغ عرض معظمها حوالي 1.75م بينما يبلغ ارتفاعها 1.65م تقريبا. ويوجد داخل اغلب الحجرات الجرار الكبيرة المستعملة لحفظ زيت الزيتون. وبما ان بعض هذه الجرار الكبيرة الحجم موجودة في حجرات يبلغ عرض مدخلها 85 سم، وارتفاعها 1.10م فالأرجح إنها وضعت بهذه الحجرات قبل تسوية المدخل. هذا ان لم تكن فتحات الحجرات قد ضيقت في فترة ما وكل الحجرات مغطاة بأقبية برميلية، وأبوابها جميعا مصنوعة من جذوع الأشجار. أما ما نراه من الأبواب الخشبية المصقولة فهي حديثة العهد (أنظر شكل 7–8). وتوجد في جميع الحجرات تقريبا فتحة صغيرة في الجدار المقابل لفتحة المدخل. ومهمتها توفير التهوية للحجرة، وتزويدها بقليل من الضوء. وهي ما تجعل الناظر إليها من خارج القصر، يفكر في استعمالها للمراقبة. ويجعله أيضا يشبه هذا القصر بالحصن.

ولقد استعمل في بناء القصر المواد المحلية المكونة من الطين والجبس وجذوع الأشجار. ولا يختلف هذا القصر في عناصره المعمارية الأساسية عن بقية قصور التخزين بجبل نفوسة. ويجدر بنا ان نوضح ان ما بأيدينا من مصادر تاريخية لا تسعفنا بتحديد تاريخ معين لبناء هذا القصر. وبغياب الأدلة التاريخية والأثرية تظل التواريخ

المقترحة مشرعة على كل الاحتمالات.



شكل 7 الجانب الغربي لقصر التخزين بنالوت من الداخل



شكل 8 جزء من الممر الذي يحيط بالمبنى الداخلي لقصر التخزين بنالوت

ويبدو ان منطقة نالوت حظيت بنوع من الأهمية في العصر الروماني نتيجة لموقعها الجغرافي.[170] وهذا لا يدعونا بالضرورة إلى قبول نظرية موندادوري، حول إرجاع تاريخ هذا القصر إلى الحقبة الرومانية أو البزنطية. ذلك ان رأيه لا يستند إلى دليل تاريخي أو اثري. ولكن من المؤكد ان قصر التخزين هذا كان قائما قبل العهد العثماني.[171] وإرجاعه إلى القرون الإسلامية الأولى ربما سيدعمه ما سيتوفر من معلومات في هذا البحث. والذهاب إلى ابعد من ذلك يعتمد على شواهد لا يتوفر في الوقت الحالي.

المسجد الأعلى

يعرف هذا المسجد عند سكان نالوت باسم (المسجد الفوقي). ويقع على بعد 15 متر تقريبا، إلى الجهة الشرقية من القصر. ومع ان الإشارة إليه قد وردت في كتابات المهتمين بهذه المنطقة، إلا ان هذه الإشارات قد جاءت بشكل مقتضب جدا.

ويميل تخطيط المسجد الأعلى (العلوي) إلى الشكل المربع. ويبلغ طول جدار القبلة حوالي 7.90م، بينما يبلغ طول الجدار الجنوبي الغربي 8.80م تقريبا. ويلاحظ ان الجدار الغربي للمسجد يفتقر إلى جودة البناء مقارنة بالجدران الأخرى. ويبلغ عرض مدخل المسجد، الموجود في الجدار الشمالي الغربي حوالي 80 سم، وارتفاعه 1.90م تقريبا، (أنظر شكل 10.9). أما سمك الجدران فيقدر بحوالي 70سم. (أنظر شكل 11).

170– R. Goodchild, Roman roodsim LIBYA and their mile stones, libya, 1968. p 158.

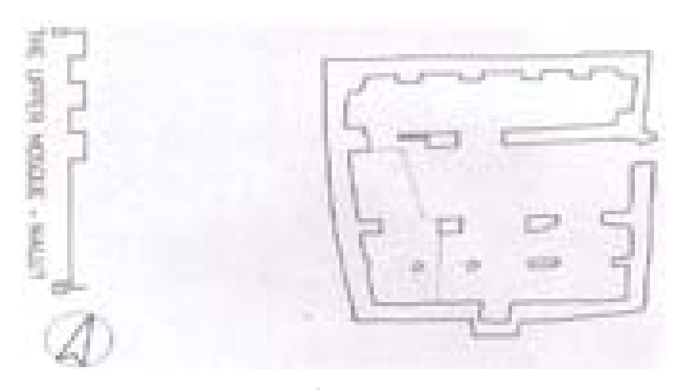
171– الطاهر الزاوي، معجم، ص 271.



شكل 9 المسجد الأعلى بنالوت الذي يشرف في الجانب الشمالي الغربي على بعض المنازل القديمة



شكل 10 مدخل المسجد الأعلى الذي يقع في الجدار الشمالي الشرقي



شكل 11 المقطع الأفقي للمسجد الأعلى

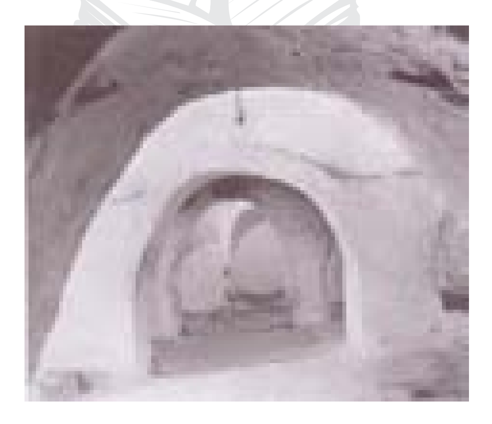
ويحتوي المسجد الحالي على قاعة للصلاة ذات أربعة أروقة. وهي مغطاة بأقبية برميلية طولية. ويبدو ان الرواق الأخير، في الجهة الشمالية الشرقية، كان خاصا بالنساء، بدليل وجود جدار يفصله عن الأروقة الأخرى.

كما يشاهد بقية اثر لمدخل في الجدار الشمالي الغربي. ويظهر انه كان في فترة ما خاصا بدخول وخروج النساء. وبعد تفحص لهذه الجهة، تبين من بقايا آثار على هذا الجدار ما يرجع وجود رواق خامس متصدع. ولا يستبعد ان أحجاره قد نقلت أو استعملت في ترميم المسجد. أما محراب المسجد فهو من البساطة بمكان. ويخلو من الزخرفة والكتابة. وهذا النمط من المحاريب شائع في مساجد الجبل القديمة (أنظر شكل، 12) كما ان السدة الحجرية، التي تحتل كل الركن الجنوبي الغربي في المسجد، تعتبر عنصرا متميزا من عمارة هذا المسجد (أنظر شكل، 13) وهي تمتد من جدار القبلة حتى الرواق الثالث لقاعة الصلاة. ويبلغ معدل ارتفاعها حوالي 35 سم، وربما

تكون قد استعملت لتعليم القران، أو لوضع ألواح الكتابة. وهذا ما تفرضه ضرورة الصلاة بهذه القاعة.



شكل 12 داخل المسجد الأعلى حيث يظهر المحراب في الجهة الجنوبية الشرقية



شكل 13 داخل المسجد الأعلى كما يبدو من الجهة الشمالية الشرقية

ولقد تم العثور على جذع شجرة في الجانب الجنوبي الغربي من المسجد، وهي بوضعها المائل عن الأرض، وانتهاء طرفها العلوي عند فتحة صغيرة بالجدار، يجعلنا في حيرة من وظيفة هذا الجذع، ويغلب الظن على إنها استعملت بدل الدرج الذي يؤدي إلى سطح المسجد. هذا إذا اعتبرنا ان الفتحة اكبر من وضعها الحالي، الذي كان نتيجة لأعمال الترميم (أنظر شكل، 14).



شكل 14 الفتحة الموجودة في الجدار الغربي التي كانت تقود إلى سطح المسجد

وتوجد أيضا قبة صغيرة على سطح المسجد. وفوق هذه القبة تتراءى بعض الأحجار المنتصبة على هيئة الأعمدة الصغيرة (أنظر شكل 9) ويعرف هذا العنصر المعماري في الجبل باسم (الصمعة)، ومع ان هذا الاسم في اللغة العربية يعني المنارة أو المئذنة، فيبدو ان الصمعة في جبل نفوسة وظفت لتحدد مكان المسجد والأبنية المهمة.

وهذا المسجد البسيط لا زال بحالة جيدة. ويرجع هذا الأمر

إلى استمرار استعماله من قبل الأهالي الذين يترددون يوميا على الموقع، بما في ذلك قصر التخزين. والمسجد بكامله يخلو من الزخرفة والكتابات. أما ما نراه من كتابة في السقف، فهي لا تمت إلى المسجد القديم بصلة، وهي نتيجة للترميمات التي أجريت عليه حديثا. ولقد بني المسجد كما هي أبنية نالوت القديمة من الأحجار غير المستوية والطين. ويبدو المسجد اليوم بطلائه الأبيض متميزا بين الأطلال، التي لم تعرف الطلاء في يوم من الأيام (أنظر شكل، 15).



شكل 15 جزء من الواجهة المطلية للمسجد الأعلى حيث يبدو المدخل البسيط في الجدار الشمالي الغربي

ويذكرنا هذا المسجد بعناصره المعمارية البسيطة ومخططه المتواضع، بالمساجد الأولى في الإسلام.[172] ولكن هذا التماثل لا يسعفنا في تحديد تاريخ بناء المسجد. وعلى العموم فالشماخي، يقدم لنا

172- K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture, G.B. 1958 P. 37.

ملمحا في هذا الشأن، بإشارته إلى جذع الشجرة الموجود بلالات.[173] وإذا أخذنا في الاعتبار ان هذا الجذع لم ينقل إلى المسجد من مكان آخر، فبإمكاننا القول، ان هذا المسجد كان قائما في القرن التاسع الهجري – الخامس عشر مسيحي. ويمكننا القول أيضا اعتمادا على المعلومات التاريخية، ان بناءه الأصلي يعود إلى القرن الثالث الهجري – التاسع مسيحي – ولكن الجزم بذلك ينقصه الشاهد التاريخي، فضلا عن الأثري.

كاباو :

تقع قرية كاباو القديمة هي الأخرى على قمة جبل يطل على وادي اكراين. وتبعد حوالي 65 كم. عن نالوت باتجاه الشرق. ولقد تصدعت المباني القديمة لهذه القرية، ولكن بعضا منها خضع لأعمال الترميم. وأصبح صالحا للاستعمال. ويتربع قصر التخزين في وسط القرية، مهيمنا على المنظر العام (أنظر شكل 17).

ولا يتوفر لدينا إلا القليل من المعلومات عن قرية كاباو القديمة. وهي أيضا لا تتعلق إلا بالوصف العابر لهذه القرية. فعلى سبيل المثال يذكر موندادوري ان بكاباو قصر للتخزين، حيث يحفظ الأهالي، في حجراته العديدة بمدخراتهم من المواد الغذائية. ويضيف قائلا: ان هذا القصر يقدم لنا فكرة مبدئية عن القصر الموجود بنالوت.[174]

ويتعرض ليفسكي إلى ذكر قرية كاباو. ويصنفها ضمن قائمة المواقع الرومانية القديمة. ويعتمد على الرحالة الفرنسي دونير ريان (H. Daneryrien) في قوله ،ان ثمة مبنى روماني بقرية كاباو.

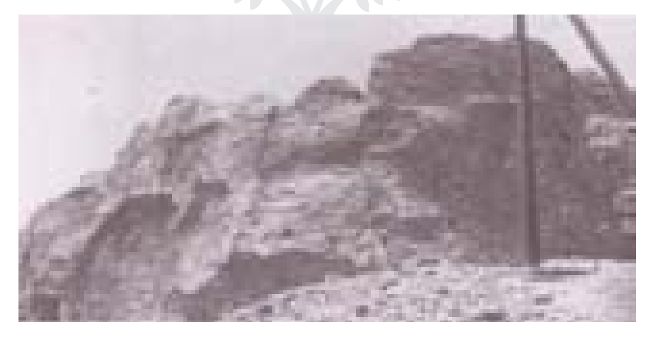
173– الشماخي، السير، ص 545.

174– موندادوري، نفس المصر، ص 64.

وعلى العموم ،فليفسكي يشكك في وجود مبنى قائم من الفترة الرومانية[175].



شكل 16 مدينة كاباو القديمة حيث يظهر قصر التخزين القديم



شكل 17 الجانب الشرقي من قصر التخزين بكاباو

ويشير مونيلتسكي هو الآخر إلى كاباو فيقول: (ان قصر كاباو، ويعني بذلك قرية كاباو القديمة، تعد من اكبر القرى في منطقة الحرابة، وهي تتكون من خمسمائة منزل ومسجدين، احدهما محفور في

175- ليفسكي، نفس المصدر، ص 64.

باطن الأرض). ويضيف إلى هذا القول: (ان قرية كاباو القديمة تطل على واد تملأه أشجار التين والزيتون).[176]

وان قصر كاباو يشبه كثيرا قصر التخزين بقرية نالوت وإلا ان الأخير يختلف عن قصر التخزين في كاباو بوجود مبنى في وسط الفناء، كما ان القصر بقرية كاباو في حالة أفضل من الموجود بنالوت. وذلك بفعل الاستعمال والترميمات. يضاف إلى ذلك ان قصر كاباو أفضل تصنيفا. وفيما عدا ذلك، فقصر نالوت اكبر حجما ويبدو ان قصر كاباو أفضل تحصينا. وان أهله أكثر اعتناء بترميمه.

تنومايت :

تقع قرية تنومايت القديمة، إلى الغرب من كاباو بحوالي 32 كم، ولقد تعارف الناس في تلك المنطقة على الإشارة إليها باسم (الخربة) (أنظر شكل، 18) أما موتيلنسكي، الذي يشير إليها بهذا الاسم فيقول: يوجد بقصر الخربة، الذي يقع إلى الغرب من تيركت،[177] اثنتي عشر أسرة أباضية فقط. وأبنيتها تتراءى على هضبة، يحدها من الجنوب جرف يتزود منه السكان بحاجتهم من الماء. وزراعتهم التين والزيتون.[178]

و لا يوجد اليوم مبنى واحد قائم بتنومايت. ولا يرى بهذا الموقع إلا بقايا الأطلال المتصدعة، ومسجدها المحفور في باطن الأرض. كما يشاهد المرء على بعد حوالي 700 متر إلى الغرب من المسجد،

176– موتيلتسكي، نفس المصدر، ص 106..

177– تيركـــت قرية قيمة مهجورة، تغطي معظـــم انقاضها الرمال اليوم وتبعد حوالي 7 كم، إلى الغرب من قرية تنومايت.

178– موتيلتيسكي ، نفس المصدر، ص 106.

كومة كبيرة من الأحجار، يرجح إنها بقايا قصر التخزين بالقرية.



شكل 18 بقايا لآثار قرية تنومايت القديمة

مسجد تنومايت:

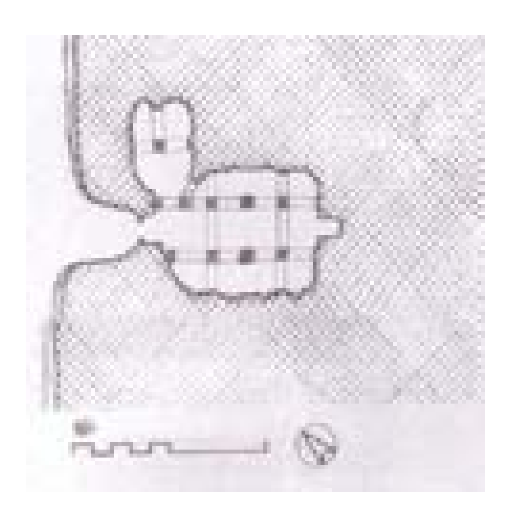
إن هذا المسجد، الذي يشغل مكانا وسطا بين آثار وأطلال تنومايت، يسمى أيضا بمسجد سيدي أمحمد.[179] وما يتميز به من دقة التخطيط وجمال الزخرفة، يجعله احد المساجد المتميزة، بمنطقة جبل نفوسة، ولقد أشار علي معمر إلى هذا المسجد على انه احد المساجد المهمة بمنطقة الجبل. وكان رأيه مبنيا على ما شاهده من الكتابة الأثرية والزخرفة الرائعة، على كل من المحراب وسقف المسجد.[180] والكتابة ذات الأهمية هي التي على مدخل المسجد.[181]

179– لا توجد معلومات تاريخية ليؤســـس عليها ما يتعلق بهذا المســـجد. ولا يعرف ســـكان المنطقة شيئا عن سيدي امحمد سوى انه كان احد العلماء ، وكان له صلة بالتعليم والصلاة في هذا المسجد.

180– علي معمر، نفس المصدر، الجزء الثالث، ص 177.

181– أنظر صفحة ، 43.

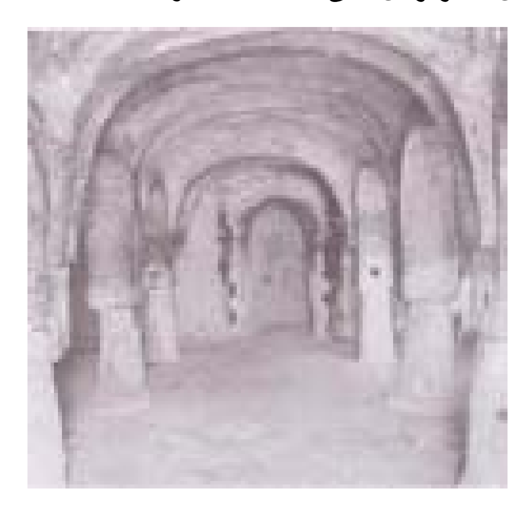
ويميل مخطط هذا المسجد إلى شكل شبه مستطيل. (أنظر شكل، 19) وتوجد به حجرة تأخذ نفس الشكل، وتقع ملاصقة للجدران الشمالي الغربي. ويبلغ طول جدار القبلة حوالي 7.20م، والجدار الشمالي الشرقي حوالي 6.30م، أما المدخل الموجود بالجدار الشمالي الغربي فيقدر عرضه بحوالي 80 سم، وارتفاعه 1.10م تقريبا.



شكل 19 المقطع الأفقي الأرضي لمسجد تنومايت القديمة

ولقد حفر هذا المسجد في باطن تلة صغيرة، وسقفه عبارة عن قبو واحد، يغطي الأروقة الأربعة بقاعة الصلاة. ويستند السقف على تسعة أعمدة. (أنظر شكل 19، 20، 21) وأهم ما يلفت النظر في هذا المبنى عناصره المعمارية المتناسقة، حيث نرى بقاعة الصلاة أربعة صفوف من الأعمدة. وفي كل صف عمودان يشبه احدهما الآخر. كما ان الجدار الشمالي الشرقي يتطابق مع الجدار الجنوبي الغربي

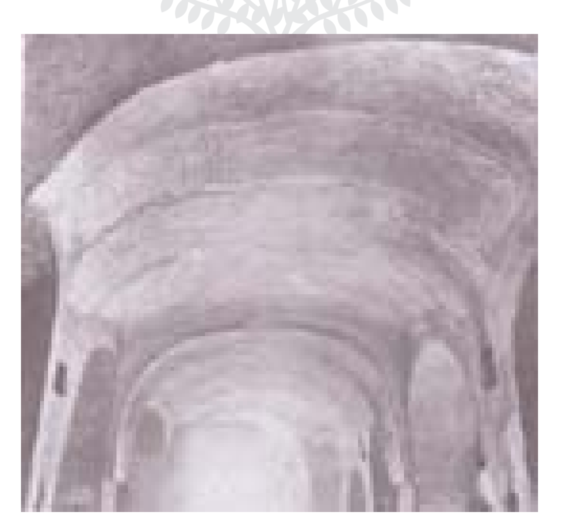
والتطابق سمة بارزة في تصميم هذا المسجد. وعلى سبيل المثال، فكل حنية صغيرة من الحائط يوجد لها مثيل في الحائط المقابل (أنظر شكل 24). وينطبق هذا القول أيضا على وضعية الوحدات الزخرفية، وتفاصيل عناصرها النباتية والهندسية. ويضاف إلى ذلك الكتابة الأثرية، التي يبدو إنها قد أضافت جمالا إلى روعة الزخرفة أكثر من إشارتها إلى ما يرمز إلى معنى يفيد إنها مقصودة لذاتها.



شكل 20 مسجد تنومايت من الداخل

ويتكون محراب المسجد من تجويف بسيط في الحائط، على هيئة شبه مستطيل. ويعلوه عقد نصف دائري، وتكتنفه حنيتان مجوفتان على الجدار واحدة من كل جانب. والظاهر أنهما كانتا مستعملتان – كما هي بقية الحنيات المجوفة لوضع قناديل الزيت، الخاصة بتوفير الإضاءة داخل المسجد (أنظر شكل 20، 22) ويبلغ عمق المحراب حوالي 1.20م، ارتفاعه 1.20م، كما يبلغ طول الحجرة القريبة من

المدخل حوالي 5 م، وعرضها حوالي 2.8م. وأما مدخلها، الذي يقدر عرضه بحوالي 80 سم، فيتكون من عقد نصف دائري يستند على عمودين صغيرين. ويشاهد عمود آخر وسط الحجرة لدعم السقف. كما يلاحظ على يمين الداخل فتحة في الجدار تطل على قاعة الصلاة. هذا بالإضافة إلى وجود حنيتان مجوفتان في الجدار المقابل للمدخل (أنظر شكل 25) ومن المستبعد ان تكون هذه الحجرة قد خصصت للتعليم أو لصلاة النساء. والراجح إنها كانت خاصة بالمخطوطات والأشياء التابعة للمسجد. ولا يتوافق سقف الحجرة مع سقف المسجد، إذ لا تظهر عليه كتابات أو زخارف. ولا جدال حول عدم نسبة بناء هذه الحجرة إلى المسجد الأصلي، والأرجح وفقا لما يظهر من آثار الترميم إنها قد أضيفت إلى المسجد في فترة لاحقة.



شكل 21 بعض الزخارف التي تزين سقف مسجد تنومايت



شكل 22 داخل مسجد تنومايت حيث يبدو المحراب في الجدار الجنوبي الشرقي



شكل 23 الجانب الشمالي الشرقي بداخل **مسجد تنومايت**



شكل 24 الحجرة الصغيرة الواقعة في الركن الشمالي الشرقي بمسجد تنومايت



شكل 25 مدخل الحجرة الصغيرة بمسجد تنومايت

ويتميز سقف المسجد، وكذلك العقود بقاعة الصلاة بزخارفها الجصية. وتتكون هذه الزخارف من أشكال هندسية وعناصر نباتية متنوعة (أنظر شكل 26، 27) أما التعريقات النباتية فهي الغالبة في العناصر الزخرفية. كما تظهر أحيانا على شكل حبيبات متتابعة. ويبدو كذلك ان شكل النجمة شائع في موضوع الزخرفة، التي تغطي كامل السقف. واللافت للنظر أشكال الحلي، التي نراها لأول مرة في زخرفة المساجد (أنظر شكل 28، 29).



شكل 26 الركن الجنوبي الغربي بقاعة الصلاة بمسجد تنومايت حيث تبدو التجويفات الجدارية التي كانت مستعملة لحفظ قناديل الزيت

وإضافة إلى ذلك، نرى أشكالا متكررة للنجمة السداسية والثمانية. (أنظر شكل 30) كما نشاهد ظهور الاقواس المتتابعة ذات الشكل نصف الدائري ولا يفوتنا التعليق على وجود السيقان المتعرجة، التي استعيرت من الفن الساساني. وشكلت فيما بعد بداية تطور الزخرفة التي عرفت في أوج تطورها بفن الارابسك (أنظر شكل

31) ولا تخلو الزخرفة أيضا من حضور الورقة النخيلية، التي يغلب ظهورها في زخرفة الاقواس، أكثر مما تظهر في المواضيع الزخرفية، التي تملأ سقف المسجد، (أنظر شكل 32) ويتخلل الزخرفة النباتية عدد قليل من الزهرات ذات الأربعة فصوص (أنظر شكل 33). وعلى العموم فمجمل الزخرفة عبارة عن وحدات زخرفية تتكرر في المسجد بكامله.



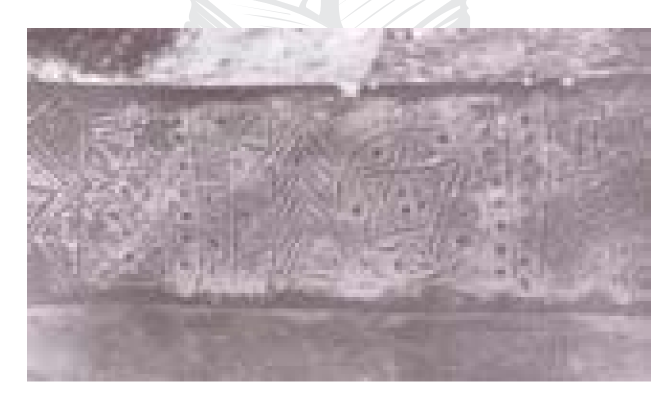
شكل 27 بعض الزخارف بسقف مسجد تنومايت

ويوجد على مدخل المسجد من الخارج حجر على شكل نصف دائري، يبلغ طول قاعدته حوالي 95 سم، وارتفاعه 50 سم، تقريبا (أنظر شكل 34) ويحمل هذا الحجر سبعة اسطر من الكتابة العربية تقرأ على النحو التالي:

1. **«إنما يعمر مساجد الله من امن بالله واليوم الآخر.**



شكل 28 بعض الزخارف بسقف مسجد تنومايت



شكل 29 بعض الزخارف بسقف مسجد تنومايت

2. **أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون.**

3. وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل.

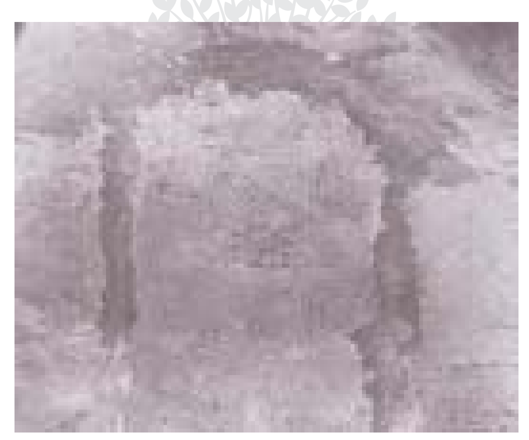
4. لي من لدنك وليا واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً.

5. بنيت في شهر الله رمضان في سنة أربعة وخمسين وأربع.

6.ماية وبناها من أراد ثوابه في الدنيا والآخرة.

7. كتبه عبد المالك بن يعقوب النفوسي.»

السطر الأول، الآية الكريمة رقم 18 من سورة التوبة، والسطر الثاني، الآيتان 1، 2 من سورة المؤمنين. والسطران الثالث والرابع، الآية رقم 80 من سورة الإسراء.



شكل 30 بعض الزخارف بسقف مسجد تنومايت

وتعد هذه الكتابة – إلى حد الآن – أقدم كتابة مؤرخة عثر عليها بجبل نفوسة. وهي بالتالي تضيف إلى المسجد تنومايت أهمية كبيرة وفنحن الآن نملك مثلا قائما لمسجد محفور في باطن الأرض

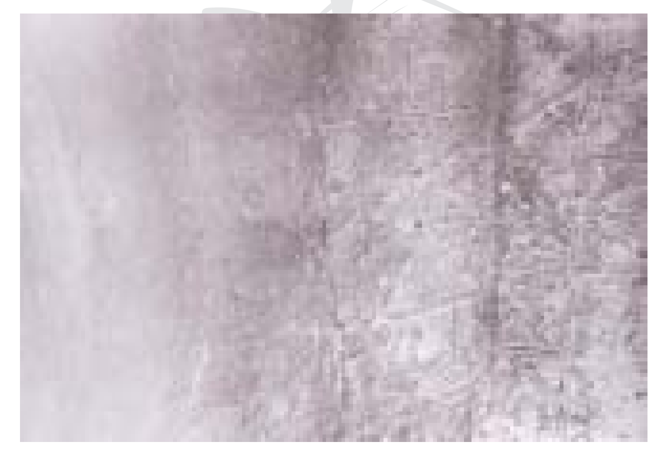
بجبل نفوسة، ويعود تاريخه إلى سنة 454هـ – 1062م. ولذا سيكون تصميم هذا المسجد بالإضافة إلى نمط الزخرفة ومواضيعها مقياسا لدراسة المباني الأثرية بهذه المنطقة. وأما فيما يتعلق وأسلوب الكتابة، وكذلك مناقشة مواضيع الزخرفة، فسنأتي عليه، مع اضطراد الكتابة في هذا البحث.



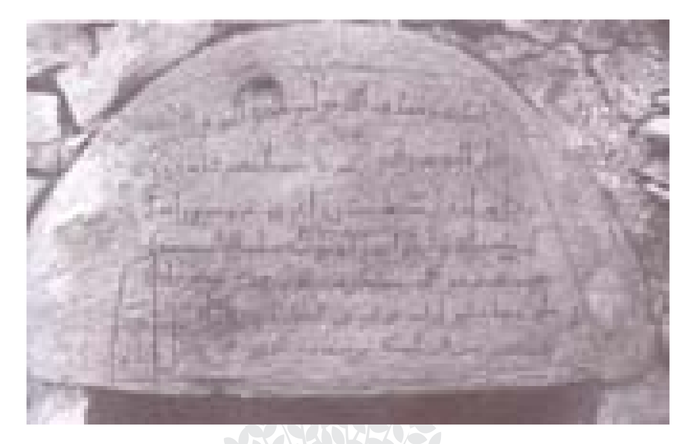
شكل 31 بعض الزخارف بسقف مسجد تنومايت



شكل 32 **الجانب الجنوبي الغربي داخل مسجد تنومايت**



شكل 33 **زخارف بمسجد تنومايت**



شكل 34 **الكتابة الموجودة على مدخل مسجد تنومايت**



شكل 35 بقايا آثار قصر سيدي حامد

ويوجد إلى الشمال الشرقي من تنومايت، بحوالي 8 كم، قرية صغيرة أخرى تدعى (قصر سيدي حامد)[182] وهي تقع على جبل

182- يسكن اليوم بقصر (قرية) سيدي امحمد مجموعة من العرب.

يطل على سهل الجفارة، وأهم ما يلفت الانتباه في هذه القرية قصر التخزين المتميز، الذي تحيط به الدور المتصدعة. ويحده من الجنوب خندق، يمتد من الشرق إلى الغرب بمسافة تبلغ حوالي 40 مترا. ويبلغ متوسط عمق الخندق حوالي ثمانية أمتار، بعرض ثلاثة أمتار. (أنظر شكل 36، 37) ولا يستطيع الزائر الوصول إلى القرية أو إلى قصر التخزين إلا عن طريق هذا الخندق. ويتحتم عليه النزول إليه، ثم التسلق أو الصعود إلى الجهة الأخرى. وما تبقى من آثار أمام مدخل قصر التخزين، يشير إلى وجود قنطرة في الماضي، كانت تستخدم كمعبر للوصول إلى قصر التخزين، وتربطه في ذات الوقت بالقرية القديمة على الضفة الأخرى من الخندق. ولم نر هذه الظاهرة في منطقة الجبل، إلا بقصر آخر، يعرف بقصر فرسيط. وينسب المكان إلى قبيلة بني زمور. ويبدو الفاصل هنا عبارة عن أخدود طبيعي عميق.



شكل 36 جزء من الخندق حول قصر التخزين المعروف بقصر سيدي حامد

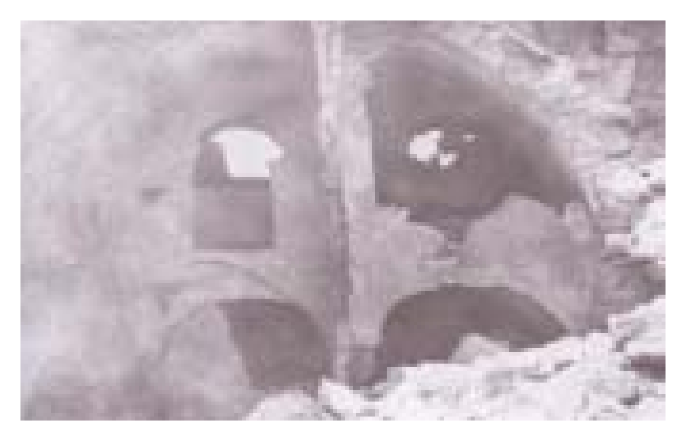


شكل 37 جزء من الخندق حول قصر التخزين المعروف بقصر سيدي حامد



شكل 38 الفناء الداخلي لقصر التخزين المعروف بقصر سيدي حامد

ويبدو ان الخندق في القصر الأول لم يكن سوى جرف طبيعي. ولقد تمكن الناس من تحويره بعض الشيء ليكون وسيلة دفاعية لتحصين القرية ومستودع مئونتهم. ويتطابق قصر التخزين في هذه القرية مع القصر الموجود بكاباو، ولكن حجرات الأول تعد أجود تصميما من مثيلاتها بقصر كاباو (أنظر شكل 38، 39) ونتيجة لهجرة الناس لهذه القرية، وعدم الحاجة إلى قصر التخزين هذا، تصدعت اغلب المباني بهذا الموقع.. ولم يبق من القصر غير طابقين.



شكل 39 أحدى حجرات قصر التخزين المعروف بقصر سيدي حامد

أبناين:

تقع قرية أبناين القديمة على سفح جبل يطل على وادي اكراين، وتبعد حوالي 12 كم، إلى الغرب من كاباو. وأبناين اليوم عبارة عن أطلال يقف في أنقاضها مسجدان (أنظر شكل 40، 41) وأحد المسجدين يحظى بتقدير واحترام بالغين من قبل أهالي نفوسة. ويبدو ان حالته الجيدة، واستمرار العناية بترميمه ترجع إلى هذا

الأمر. ومن المعروف ان هذه القرية قد نالت شهرة في القرون الرابع الهجري – العاشر مسيحي، بعد ان اتخذها حاكم الجبل أبو هارون مقرا لإقامته.



شكل 40 المسجد القديم بأبناين



شكل 41 الجانب الغربي لمسجد أبناين حيث المدخل الخاص بالنساء في الجهة الجنوبية الشرقية

ويقرر ليفسكي اعتمادا على أعمال الباروني والشماخي، ان هذه القرية لها أهمية خاصة. ذلك لأنها مرتبطة بأبي موسى بن هارون، الذي بنى بها مسجدا في القرن الرابع الهجري – العاشر مسيحي. وهي لا زالت قرية عامرة عندما زارها الفرسطى.[183] ويجزم ليفسكي بان المسجد القائم بأبناين هو مسجد أبي هارون، كما انه يضيف، بان أبناين تتكون من كلمتين ،كلمة عربية وتعني (ابن) ولاسم هذه القرية علاقة بـــ (Tabuinati) أو (Thabunati) وهي مكان ذكر في بعض الكتب انه بين مدينة لبدة وثلاثي .(Thalati) ولكن ليفسكي يقترح ان هذا المكان يقع بجهة ما في المنطقة الشرقية من الجبل. ويسترسل قائلا :ان اسم تبوناتي (Thebunati) أسم ليبي أنثوي. وهو نفس الاسم الذي أطلق على قرية أبناين في صيغته الذكورية إبان العصور الوسطى[184].

ويصف علي معمر وادي اكراين، بأنه واد يمتد من عين الماء التي تستقي منها قرية كاباو، إلى ابناين. وهذه القرية هي وطن أبي هارون وابنه أبي الربيع كما إنها موطن لكثير من الشخصيات البارزة بجبل نفوسة. وهي محاطة ببعض القرى ذات الصلة بابناين.[185] وهذا مما يعني ان أبناين القديمة لم تكن فقط هذه القرية الصغيرة، وهو ما يتفق واتخاذها مركزا للحكم.

وأبناين اليوم عبارة عن قرية مهجورة. ولا يسع المرء عند مشاهدته لبقايا أطلالها، إلا ان يرجع بأنها كانت على قدر من الاتساع، وما يتبع ذلك من كثرة السكان (أنظر شكل 42) ويلاحظ

183– ليفسكي، نفس المصدر، ص 73–4.

184– المصدر السابق ، ص 74.

185– المصدر السابق، ص 74.

بقايا لسور بالجهة الغربية من القرية. ولا يستبعد ان يكون هذا السور قد أحاط بالقرية كلها في وقت ما. ذلك ان موقعها يختلف عن تلك القرى المقامة على سفوح الجبال، مما يوفر لها تحصينا طبيعيا. (أنظر شكل 43) ويبلغ متوسط سمك بقية هذا السور حوالي متر واحد. وثمة مؤشرات تدعونا إلى القول بان هذا السور كان يمتد باتجاه الوادي. ذلك ان أجزاء من بقاياه لا زالت منظورة وممتدة حتى حرم المسجد. ونرى على الطرف الآخر من القرية، في الجهة الشمالية، مسجد آخر. وتوجد أيضا بقايا أطلال لقرية قديمة في الجهة الشمالية الشرقية، حيث يقف في وسط الانقاض مسجد بسيط بحالة جيدة.



شكل 42 منظر عام لقرية أبناين القديمة كما تبدو من خلال النظر إليها من مدينة كاباو التي تقع إلى الشرق من إبناين

مسجد أبناين:

يشير الشماخي إلى هذا المسجد، ويطلق عليه مسجد أبي

هارون،[186] ولكن لا يحدد مكانه،[187] ولا يهتم الشماخي أصلا – في سيره – بالجوانب المعمارية والفنية، قدر اهتمامه بالرجال والجوانب العلمية. وكذلك بالوصفات التاريخية، التي لا يستعين فيها بغير المصادر الأباضية.



شكل 43 جزء من بقايا السور القديم الذي من المحتمل أنه كان يحيط بأبناين القديمة



شكل 44 مسجد أبناين كما يبدو من الجهة الشمالية الشرقية

186– أنظر أعلاه، ص 44.
187– الشماخي، السير ، ص 536.

ويقع مسجد أبناين على سفح منحدر صغير وسط أطلال القرية القديمة، ويطل على وادي اكراين في جهته الجنوبية الغربي. وله شكل شبه مستطيل، حيث يبلغ جدار القبلة فيه حوالي 10.5م، بينما يبلغ الجدار الشمالي الغربي حوالي 7.25م. ويتكون المسجد من أربعة أروقة، مغطاة بأقبية برميلية. ولهذا المسجد مدخلان، احدهما وهو الرئيسي ويقع في الجدار الشمالي الغربي، ويبلغ ارتفاعه 1.63م، وعرضه 85 سم. والثاني ويقع قبالة المدخل الأول، ويبلغ عرضه حوالي 70 سم، وارتفاعه 1.75سم تقريبا، (أنظر شكل 45). والراجح ان المدخل الأصغر كان مخصصا لاستعمال النساء في فترة ما، إذ ان هذا المدخل يقود إلى احد قسمي المسجد، الذي تشكل بفعل وجود الجدار الفاصل بقاعة الصلاة. وبالإضافة إلى هذين المدخلين لا يتوفر شيء من الضوء والتهوية، إلا عن طريق أربع فتحات صغيرة متقابلة. ويوجد درج بداخل المسجد، في الكن الشمالي الشرقي يقود إلى سطح، (أنظر شكل 46)، وعلى الرغم من إغلاق الكوة بأعلى الدرج، فهذا دليل آخر على استعمال السطح لإقامة الأذان، (أنظر شكل 47)، وكنا قد اشرنا إلى ان المئذنة لم تكن من مكونات المسجد الأباضي القديم .

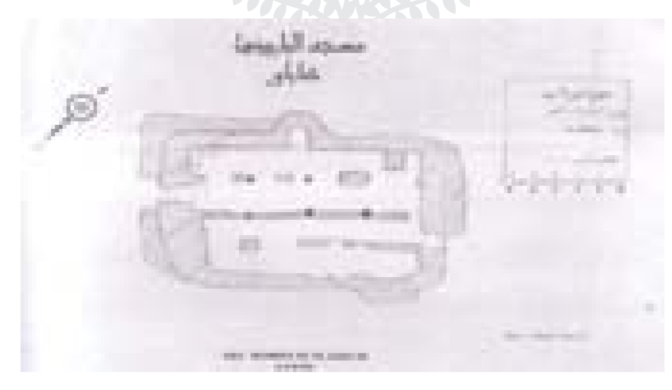
و يتكون محراب المسجد من تجويف في جدار القبلة، يعلوه عقد شبه نصف دائري. ويبلغ عمقه حوالي 1.35م، وارتفاعه 2.27م. تقريبا و، وعرضه 82 سم وهذا المحراب الملبس، على واجهته بأحجار جيدة القطع، بمعية الكتابة، يعتبر مثلا متفردا في كل أنحاء جبل نفوسة، (أنظر شكل 48).

و تنحصر الكتابة والزخرفة بهذا المسجد على الأحجار الثمانية، التي تكتنف جانبي المحراب، حيث تظهر أربعة منها على

جانب، مرتبة فوق بعضها بشكل راسي. وسنتبع في وصفها هذا الترتيب والتسلسل.



شكل 45 المدخل الخاص بالنساء مع الفتحتين الصغيرتين في مسجد أبناين



شكل 46 المقطع الأفقي الأرضي لمسجد أبناين

1- **الحجر الأول: بالنظر إلى المحراب وعلى اليمين، نرى وحدة زخرفية تتشكل من ثلاثة دوائر متداخلة. وتحتوي على نجمة سداسية مكونة من مثلثين متقابلين ومتداخلين، والدائرة الخارجية**

تضم أقراصا صغيرة، وبداخل كل منها حبيبة، وفي الدائرة الداخلية الصغرى، وكذلك في المساحات بين أطراف النجمة، نرى عناصر زخرفية نباتية تشبه صدف المحار.



شكل 47 الدرج الذي كان يقود إلى سطح مسجد أبناين

2- **الحجر الثاني: يتكون التصميم هنا من أربعة دوائر تحيط ببعضها البعض، وتزينها الأزهار ذات الثمانية فصوص. وتصحبها تعريقات نباتية تشبه الشوك. وتحتوي الدائرتان الخارجيتان على كتابة كوفية مورقة. وتقرأ على النحو التالي:**

شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو. (قرآن كريم، سورة 3**، الآية** 18**).**

3- **الحجر الثالث: تتكون الزخرفة، مرة أخرى، من أربعة دوائر، تحيط كل منها بالأخرى. وتظهر في الوسط زهرة ذات ثمانية فصوص، ولقد تعرضت الزخرفة داخل الدائرتين الداخلتين للتلف.**

أما الدائرة الخارجية فتحتوي على ورقة نباتية ذات أربعة تفريعات، تتكرر في فراغ محيط الدائرة خمس مرات.



شكل 48 محراب مسجد أبناين مكتنفا من الجهتين بالزخارف



شكل 49 زخارف تكتنف محراب مسجد أبناين

4- الحجر الرابع: تشبه الزخرفة هنا في الأغلب الأعم ما رأيناه على الحجر الأول ويتمثل الفرق الوحيد في الدائرة الخارجية، التي تملأها الأقراص الصغيرة، والواضح ان الفنان لم يكمل نحت محيط الدائرة. كما يلاحظ ظهور قرص صغير في كل ركن من أركان هذا

الحجر. والنجمة التي تتوسط الوحدة الزخرفية على هذا الحجر، تتكون من اثنتي عشر فصا، (أنظر شكل 52).



شكل 50 زخارف وكتابة على محراب مسجد أبناين

وبالنظر إلى المحراب، وإلى اليسار، توجد أيضا أربعة أحجار، ملبسة على المحراب بشكل راسي. وسنتبع في وصفها ذات النسق المستخدم في وصف الأحجار السابقة وتسلسلها.



شكل 51 زخارف وكتابة على محراب مسجد أبناين

الحجر الأول: تتماثل الزخرفة هنا مع ما رأيناه على الحجر الأول في الجهة الأخرى من المحراب، والفرق الوحيد ان النجمة هنا تتكون من ثمانية فصوص.



شكل 52 زخارف على محراب مسجد أبناين

الحجر الثاني: يتشكل التصميم هنا من دائرتين، تحيط إحداهما بالأخرى. ويظهر شكل يشبه الصليب في وسط الداخلية منهما. ولقد أدى هذا العنصر الهندسي إلى تقسيم الدائرة إلى أربع أجزاء، حيث تبدو الزخرفة في كل جزء متطابقة مع الجزء المقابل. فنرى في

جزئين ظهور الورقة النخيلية، بينما تزين الجزئين الآخرين عناصر زخرفية نباتية، ويتميز احدهما عن الآخر بوجود عنصر هندسي عن شكل معين (أنظر شكل، 54). أما في الدائرية الخارجية فتظهر كتابة متميزة بالخط الكوفي البسيط. وتقرأ على النحو التالي:



شكل 53 زخارف على محراب مسجد أبناين

(نعمة سابغة، بركة كاملة، بركة من الله لمن امن بأمان الله، وليه) وفي هذه العبارة إشارة إلى ان من أمر ببناء المسجد رجل تميز بالعلم. وهذا ما يرجع نسبته إلى أبي هارون.



شكل 54 زخارف وكتابة على محراب مسجد أبناين

الحجر الثالث: تتشكل الوحدة الزخرفية هنا من خمس دوائر تحيط كل منها بالأخرى. ويظهر في الوسط زهرة ذات ثمانية فصوص.

ويظهر في معيتها العنصر النباتي الشوكي. وفي هذه الوحدة نرى شكلا جديدا في التصميم، إذ يظهر شكل هندسي على هيئة معين متصلا بالدوائر المحتوية على الوحدة الزخرفية. ونرى تتابع الأقراص الصغيرة داخل محيط الدائرة الخارجية. وفي وسط كل قرص تظهر حبيبة (أنظر شكل، 55).



شكل 55 زخارف على محراب مسجد أبناين

الحجر الرابع: تتكون الوحدة الزخرفية هنا من ثلاثة دوائر. وهي تتبع نفس النسق الذي رأيناه في الأحجار السابقة. ويشغل وسط هذه الوحدة الزخرفية نجمة سداسية. ويبدو إنها قد تشكلت بفعل المثلثين المقلوبين، اللذين يظهران على شكل معين. والزخرفة في مجملها متطابقة مع ما رأيناه على الحجر الأول، في الجهة الأخرى من المحراب (أنظر شكل 56).

والحقيقة أننا على الرغم بان أبا موسى التملوشايتي، حاكم جبل نفوسة،[188] قد اتخذ ابناين مقرا لإقامته، في القرن الرابع الهجري – العاشر مسيحي. كما أننا على علم أيضا، بأنه كان احد العلماء المتميزين بالجبل. وطبقا للمعلومات التاريخية فهو الرجل الذي بني مسجدا بقرية ابناين.[189] وبالإضافة إلى ذلك، فالمصادر التاريخية تدعم هذه المقولة. وتجاوزا لما سوف يطرح في موضوع الزخرفة، فأسلوب الكتابة الكوفية والمستوى الراقي المتمثل في الزخرفة، يرجحان نسبة هذا المسجد إلى فترة أبي هارون، وهذا المسجد أيضا، كما هو مسجد تنومايت، يظل مثلا جيدا لدراسة المساجد القديمة بالجبل.

ولقد وردت إشارات، في الصفحات السابقة إلى بعض المظاهر المعمارية والفنية. ولقد تعمدنا مجانبة الخوض فيها، لأننا بحاجة إلى أمثلة أخرى تساعدنا على تكوين فكرة بشأن وجودها في جبل نفوسة. وفيما يلي مختصر لأهم هذه المظاهر.

لقد اتضح لنا ان أكثر المساجد والتي أشير إليها فيما سبق، قد بنيت على مستوى اقل من مستوى سطح الأرض المقامة عليها،

188– تملوشـــايت احدى قرى الجبل القديمة، وتبعد حوالي 30 كم، إلى الشرق من كاباو.

189– الشماخي، السير، ص 341.

كما يلاحظ ان مسجد تنومايت محفور بكامله في باطن التلة الصغيرة. ويتضح أيضا شيوع تغطية هذه الأبنية بالأقبية البرميلية. والسؤال يتمحور حول تفسير هذه الظاهرة.



شكل 56 زخارف على ماالجهة اليسرى عند مواجهة حراب مسجد أبناين

ومن المعروف ان صلاة الجمعة تتضمن ركنا أساسيا، إلا وهو

الخطبة، وهذا الركن يحتاج إلى وجود المنبر لتنفيذه. ولقد رأينا غياب هذا المظهر في المساجد الأنفة الذكر، وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي:

كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة في المساجد القديمة بجبل نفوسة؟.

ولقد تبين لنا أيضا وجود فتحة بأعلى الجدار في مسجد نالوت، وكذلك الحال بالنسبة لمسجد تنومايت. ويلاحظ انه في الأول قد تم سد جزء كبير من الفتحة، أما في الثاني فلقد تم إغلاق الفتحة بالكامل، وبقي الدرج الذي لا تعرف له وظيفة. فهل لهذه الفتحات المستغنى عنها في مساجد الجبل، وكذلك الدرج، علاقة بالنداء للصلاة (الأذان) في وقت ما؟.

ولقد ظهرت المئذنة في العمارة الإسلامية في وقت مبكر، وبالتحديد في القرن الأول الهجري – السابع مسيحي. ولقد رأينا في مساجد الجبل غياب هذا العنصر المعماري، فلماذا تفتقر مساجد الجبل إلى هذا المظهر المحبب، مع الأخذ في الاعتبار عدم ضرورة وجود المئذنة في السنوات الأولى لظهور الإسلام؟ وكذلك ما هو التعريف الحقيقي لكلمة (الصمعة) في جبل نفوسة، وما هي الوظيفة الحقيقية للصمعة؟.

وإن وجود المحراب في أي مسجد هو في حقيقة الأمر تحديد الاتجاه نحو الكعبة المشرفة بمكة، ولقد حرص المعماريون والفنانون المسلمون على الاهتمام والتركيز على هذا العنصر المعماري. ونحن قد رأينا محاريب المساجد في جبل نفوسة متصفة بالبساطة والخلو من الزخرفة والكتابة. هذا إذا استثنينا محراب مسجد ابناين، فهل يمكن

لنا ان نعتبر هذه الظاهرة من خصوصيات المسجد الأباضي بالجبل؟

وثمة أسئلة أخرى يطرحها الحديث عن الكتابة في مسجدي أبناين وتنومايت وغيرهما. وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في الفصل السادس، حيث يتم مناقشة الكتابات الأثرية، التي عثر عليها بجبل نفوسة. أما ما يتعلق بالزخرفة وأساليبها، فسنتعرض له مع تقدم البحث.

وعلى الرغم من القصد الذي تبناه هذا المبحث، والمتمثل في عدم التوسع في دراسة ومناقشة قصور التخزين، إلا ان التعرض لذكرها والإشارة إليها، ربما يساعدنا في رسم الصورة الكاملة للمدينة، أو القرية الأباضية بالجبل، إبان القرون الإسلامية الأولى. ومن البديهي ان تتشكل بعض المحاور ذات الأهمية من خلال متابعتنا لدراسة المزيد من المباني الأثرية بهذه المنطقة.